عبد الحميد الكاتب

القدس

الفتح الإسلامى
الغزو الصليبى
الهجمة الصهيونية

دار الشروق

القُدس

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ - تلكس : SHOROK 20175 LB

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم :

﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ .

[سورة الإسراء]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد . . المسجد الحرام . . ومسجدى هذا . . والمسجد الأقصى » .

والمسجد الأقصى هو أولى القبلتين . . وثالث الحرمين الشريفين .

وعن ابن عباس رضى الله عنه :

« البيت المقدس بنته الأنبياء ، وسكنته الأنبياء ، ما فيه موضع شبر إلا وقد صلّى فيه نبى أو قام فيه ملك » .

موضوعات الكتاب

مقدمة الكتاب

فتح صلاح الدين الأيوبى بيت المقدس ، وانتزعها من أيدى الصليبيين ، وأزال « مملكة بيت المقدس » ، التى أقاموها فحكمت القدس وما جاورها من بلاد فلسطين . وعادت القدس ، بعد ثمان وثمانين سنة من الحكم الصليبى ، مدينة إسلامية ، كما كانت منذ عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

حدث هذا فى سنة ٥٨٣ هـ . ولو كان التاريخ حينذاك يكتب بالتاريخ الميلادى ، ولو كانت الحروب والمعارك تسمى بأسماء الشهور والسنوات التى وقعت فيها ، لسميت معركة صلاح الدين هذه « معركة أكتوبر » . . فقد دخل الفاتح الإسلامى العظيم المدينة المقدسة يوم ١٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م .

وكان فتح بيت المقدس نقطة التحول فى مجرى الحروب الصليبية ، فبعد أن كانت الغلبة للقوات الصليبية ، التى زحفت من أرجاء أوروبا ، مؤلفة من مئات الآلاف من المحاربين ، خرج عليهم صلاح الدين من مصر بجيش قوى مؤمن مستبسل ، فخاض المعارك واحدة إثر أخرى ، وظهر على الصليبيين ، وانتصر . فأخذت موجاتهم تنحسر ، وولت قواتهم ترتد وتتراجع ، ثم راحت تنسحب من كثير من البلاد التى فتحوها وحكموها واستوطنوا فيها .

ومضى صلاح الدين إلى ربه ، بعد أن أثبت فى سجل التاريخ ، بما ملأ قلبه من إيمان وما أبدى من شجاعة وحكمة ، أنه البطل الذى ظهر من بين المسلمين فى فترة من أظلم فترات التاريخ الإسلامى ؛ فبث فى المسلمين من روحه ، وكون لهم جيشا حارب وهزم ثلاثة جيوش أوروبية كبيرة : جيشا ألمانيا يقوده فردريك الثانى ، وجيشا فرنسيًّا يقوده فيليب الثانى ، وجيشًا إنجليزيًّا يقوده ريتشارد قلب الأسد .

مات صلاح الدين ، فورث أبناؤه وأقاربه الإمبراطورية الإسلامية الفسيحة التى كونها ووحدها ؛ فأخذ كل منهم جزءًا ، ونصب نفسه ملكا أو أميرًا عليه . وكانت مصر ، وهى أكبر وأهم أجزاء تلك الإمبراطورية ، من نصيب أخيه الملك العادل سيف الدين .ثم من نصيب ابن أخيه الملك الكامل ، الذى حكم مصر من سنة ١٢١٨ إلى سنة ١٢٣٨ . وكانت القدس أيضًا من نصيب الملك الكامل ، منذ تركها له إخوته ؛ فهو أقدر منهم على حمايتها من الصليبيين ، الذين مازالوا يريدون أن يثأروا لهزيمتهم أمام صلاح الدين ، ويريدون أن ينتزعوا المدينة المقدسة من أيدى المسلمين .

وانصرف كل ملك وكل أمير إلى مملكته الصغيرة ، يحكمها ويستغلها ويحاول أن يوسع رقعتها ، ونشبت الخلافات بينهم وبين جيرانهم من الحكام ، وبينهم وبين أنفسهم أيضًا ، وكان أمرهم فرقا ؛ فنسوا جميعا أن الخطر الصليبى مازال ماثلا ، وأن الصليبيين مازالوا معتصمين بعدد من القواعد والثغور فى الشام ، وأنهم يدعمونها استعدادًا ليوم يستأنفون فيه الحرب ، ويثأرون لهزيمتهم ، ويعودون إلى القدس .

وقد أدرك الصليبيون ، بعد هزيمتهم أمام صلاح الدين ، أن مصر هى مصدر الخطر الحقيقى عليهم ، وأن المسلمين لم ينتصروا إلا بعد أن

اتحدت مصر والشام ، وانفتح الطريق بينهما ؛ فخرج صلاح الدين بجيشه من مصر ، وزاده جنودًا وعتادًا خلال مسيرته فى الشام ، فكون جيشا إسلاميا قويًا ، انهار أمامه الجيش الصليبى . .

وقرر الصليبيون أن يعدلوا خططهم الحربية . . وأن يبدءوا بغزو مصر وضربها وعزلها ، وأن يفصلوا بينها وبين الشام وفلسطين . . فإن نجحوا فى هذا ، سهل عليهم أن يستردوا القدس ، وأن يحكموا فلسطين والشام، وأن يغزوا بلاد المسلمين جميعًا .

وسارت سفنهم من موانى إيطاليا ، فعبرت بهم البحر وأنزلتهم على شواطئ مصر ، فاحتلوا دمياط ، ثم أخذوا يزحفون إلى القاهرة . .

وحاول الملك الكامل أن يصد زحفهم ، وأن يسترد دمياط . . واستنجد بإخوته وأبناء عمه فى الشام ، فلم ينجدوه . .

وفكر الملك الكامل فيما يصنع . . وهداه تفكيره إلى أن أسهل الطرق وأقصرها ، هى أن يحالف الصليبيين أنفسهم . . فأرسل إلى كبيرهم ، فردريك الثانى ، يعرض عليه أن يجلو الصليبيون عن مصر مقابل أن يتنازل له الملك الكامل عن بيت المقدس ، ومملكة القدس التى كانت تشمل معظم فلسطين .

ورحب فردريك بهذا العرض السخى ، الذى يستولى به الصليبيون على بيت المقدس ومملكته دون حرب ودون عناء . .

ولكن فريقا من الصليبيين رفضوا هذا العرض ، وقالوا : لماذا لا نأخذ مصر أولا ، وبعد هذا نأخذ بيت المقدس . . ثم نزحف فنأخذ الشام كله ؟ . . وكان البابا فى روما على هذا الرأى المتطرف ، فأعلن سخطه على فردريك الثانى ، أو تظاهر بإعلان هذا السخط ، ليقوى جانب

أولئك المتطرفين الذين يريدون أن يلتهموا العالم الإسلامى كله ، قدسه ومصره وشامه ويستذلوا المسلمين جميعًا ! . . وبهذا يحققون غرضهم الدينى بالاستيلاء على القدس ، ويحققون أغراضهم المادية بالاستيلاء على بلاد المسلمين وخيراتها !

ولعلها كانت مسرحية ، قسم فيها الصليبيون أنفسهم فريقين : فريقا يرضى بالمهادنة والصلح ، وفريقا يريد أن يمضى فى الحرب والقتال . . وتغلب الفريق الثانى ، واستأنف الصليبيون القتال ، وحاولوا أن يخرجوا من دمياط ، ويزحفوا إلى القاهرة . وعندئذ ، لم ير الملك الكامل بدا من أن يحاربهم . . واستطاع فعلا أن يخرجهم من دمياط ، وأن يردهم إلى سفنهم يركبونها ويعودون إلى أوروبا . . ولكنهم كانوا قد أعدوا عدتهم لغزوة أخرى لمصر ، لا يكون جنودها من بحارة جنوة وموانى إيطاليا فحسب ، بل بجيش قوى يقوده إمبراطور ألمانيا فردريك الثانى .

عندئذ ارتجف الملك الكامل . . وتخيل عرشه مهتزًّا يريد أن ينقض . . فعاد مرة أخرى يلح على الصليبيين أن يقبلوا عرضه السخى ، فيتركوا مصر ، ويأخذوا القدس . .

وقدر الملك الكامل أن رعاياه المصريين سوف يستريحون إلى هذا الاتجاه السلمى . . وأنهم سوف يلتفون حوله ، ويتحمسون لسياسته التى ترمى إلى فض النزاع دون حرب تهلك حرثهم ونسلهم . . وكان المصريون قد تعبوا فعلاً ، وملوا فعلاً ، من تلك الحروب الطويلة التى جرت أيام صلاح الدين فى أرجاء فلسطين والشام . . ثم فى دلتا النيل وعلى شواطئ مصر .

إن حروب صلاح الدين اقتضت إعداد جيش كبير إعدادًا كاملاً . وكان من الطبيعى أن يعتمد سلطان مصر على موارد مصر قبل غيرها من

البلاد . . فكانت مصر هى مصدر تزويد الجيش وتموينه . . وقد كرست محاصيلها وخيراتها للجيش الضخم الذى تألف من الآلاف من أقوى العناصر فى العالم الإسلامى . . وخاصة من الأكراد ومن الأتراك الذين كانوا هم عماد جيش صلاح الدين . . وكانت معهم أيضا عدة آلاف من المصريين ، ولكنهم كانوا يقومون بما يتطلبه الجيش من خدمات وأعمال . . وربما كان هذا من أسباب ضيق المصريين أيضًا بتلك الحروب التى طالت سنين وسنين .

كل هذا أرهق أهل مصر إرهاقًا شديدًا ، وضاق شعب مصر ضيقًا جاوز حدود الصبر ، ورأى أن الحرب قد استنزفت موارد بلاده وخيراتها . . فحلت المجاعة بهذا البلد الخصيب ، وكانت مجاعة رهيبة تحدث عنها المؤرخون .

وتسلطت فكرة مهادنة الصليبيين على رأس الملك الكامل . . وقرر أن يتنازل عن القدس للصليبيين . . وأن يعقد معهم معاهدة صلح وسلام . . هى معاهدة يافا التى وقعت يوم ١٨ فبراير ١٢٢٩ ، وتسلم الصليبيون القدس ، واحتلوه ، ورفعوا عليه الصليب . .

وترامت الأنباء إلى أنحاء العالم الإسلامى . . وأحس المسلمون بالفجيعة الأليمة أينما كانوا . . وأقيمت الصلاة فى المساجد ، فارتفعت أصوات الخطباء من فوق المنابر تلعن السلطان الكامل ، وارتفعت أيدى المصلين تدعو الله أن يدرأ عنهم هذا البلاء . . وتعاطف حكام المسلمين فى شتى البلاد مع مشاعر شعوبهم ، فسبوا السلطان الكامل وقاطعوه ونبذوه .

ولم تمض على هذا بضع سنين ، حتى كان المصريون أكثر المسلمين سخطا على ما جرى . . فانبعث من بينهم صلاح الدين من جديد . .

وكان هذا البطل الجديد ، هو الظاهر بيبرس ، الذى خرج من مصر على رأس جيش كبير قدروه بأربعين ألفا من الفرسان ومائة ألف من المشاة . وسار الظاهر مبتدئًا بغزة ، وقاصدًا مدن الشام ومدن فلسطين ، فخلصها واحدة واحدة من أيدى الصليبيين وما حالفهم من قوات المغول، التى كانت قد زحفت هى الأخرى على بلاد المسلمين . . وتعاهد المغول والصليبيون معا فى حرب المسلمين .

وظلت الحرب دائرة على أشدها طوال عهده ، ومن بعده فى عهد قلاوون سلطان مصر ، حتى سقط آخر معقل من معاقل الصليبيين ، ونزحت آخر فلولهم فى سنة ١٢٩١ ، فكانت هذه هى خاتمة الحروب الصليبية التى دامت قرنين من الزمان .

خلال القرن الأول من هذين القرنين ، سيطر الصليبيون على العالم الإسلامى ، وتهاوى أمامهم الحكام المسلمون جميعا . . وقبع خليفة المسلمين العباسى فى بغداد خائفًا مرتعدًا ، وقبع خليفتهم الآخر الفاطمى فى القاهرة مترهلا متواكلا . . وراح الحكام الصغار يحاولون اتقاء شر الصليبيين بالتهادن والتحالف ، ويستعينون بالصليبيين الأوروبيين والمسيحيين البيزنطيين ، ويستنجدون بهؤلاء وهؤلاء فيما ينشب بين المسلمين من صراعات ومعارك . .

وكان الكامل أبرز هؤلاء الحكام المتهاونين ، رغم أنه سلطان أكبر بلد إسلامى ؛ فهو ليس « أتابك » حلب أو صاحب الموصل كما كانوا يلقبون الحكام والأمراء فى ذلك الوقت . . بل هو سلطان مصر ، وهو وريث صلاح الدين . .

وأغرب من هذا ، أن الملك الكامل تهاوى أمام الصليبيين ، وراح يسعى إلى محالفتهم ، ثم تنازل لهم عن القدس مقابل وعد بذلوه له . .

فعل هذا بعد أن كان قد حارب الصليبيين ، وانتصر عليهم بفضل من الله ، وبخطة لم يضعها هو ، وإنما وضعها المصريون عندما فتحوا سدود الترع والقنوات فى الدلتا ، فأغرقوا الصليبيين واضطرت فلولهم إلى الفرار من مصر . . ولكن انتصاره على الصليبيين زاده خوفا منهم . . فتنازل لهم عن القدس ، مقابل وعد بذلوه . وقد أخذ الصليبيون القدس واحتلوها ، ثم عادوا بعد تسع سنوات إلى غزو مصر بجيشهم وأسطولهم . .

وكانت هذه هى نهاية العرش الأيوبى ، الذى ظن الملك الكامل أنه يحميه بمحالفة الصليبيين ! . . ذلك أنه أخطأ خطأ جسيما ، بل ارتكب خطيئة كبيرة ، حين دخل مع الصليبيين فى معاهدة صلح وسلام ، وهو يعلم أو لا يعلم أنهم لا يريدون صلحا وسلاما .

وقد سجل التاريخ خطيئة الملك الكامل فى صفحة باهتة تافهة . . بينما سجل بطولات صلاح الدين ، وبطولات الملك الظاهر ، فى صفحات ناصعة بيضاء ، بقيت تراثا لنا ، يشد العزائم كلما وهنت ، ويبعث الأمل والضوء كلما ساد اليأس وأظلمت الدنيا .

وكثيرا ما يعيد التاريخ نفسه : فى مراحله ، وفى مواقعه ، وفى شخصياته . فلنقرأ هذه القصة ، ذات العبرة وذات المغزى من أولها .

فلنقرأ القصة من أولها . . إنها قصة « مسيرة الإسلام إلى القدس » . . تلك المسيرة التى بدأت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . عندما هداه الله سبحانه وتعالى إلى أن يتطلع إلى المقدس الشريف ويتجه إليه ، حتى عندما كان مهاجرا وقبل أن يفتح مكة . . ثم أرشد الله عز وجل خليفته الراشد الأول أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، فسيّر جيشا إسلاميا فى اتجاه القدس . . ثم أتم الله تبارك وتعالى نعمته ، فأرشد

الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فسار بنفسه على رأس جيش المسلمين حتى وصل إلى القدس ، ثم دخلها سلماً ، وتسلَّم مفاتيحها من أسقف المدينة التى صارت منذ ذلك الوقت مدينة إسلامية ، يشد الرحال إلى مسجدها الأقصى ، رغم ما توالى عليها فى الأزمنة السيئة من غارات صليبية ، ومن غارات صهيونية .

فلنقرأ أولاً قصة « مسيرة الإسلام إلى القدس » .

الفصل الأول

مسيرة الإسلام إلى القدس

١ ـ معركة الشهداء ..
فى سبيلهم إلى القدس

هفت قلوب المسلمين ، وتطلعت أبصارهم إلى القدس الشريف ، وتحركت مسيرة منهم شطر بيت المقدس ، منذ بداية الإسلام وفى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام .

كان القدس الشريف قبلة المسلمين الأولى ، يتجهون إليه فى الصلاة ، منذ فرضها فى ليلة الإسراء والمعراج قبل الهجرة . وظل قبلتهم بعد الهجرة بوقت قارب عاما ونصف العام . ثم أوحى الله عز وجل إلى رسوله الكريم ، فى ليلة النصف من شعبان ، أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام ، وأن يولى المسلمون وجوههم شطره أينما كانوا .

وكان المسجد الأقصى فى القدس معززاً مكرما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو ثانى مسجدين وضعهما الله فى الأرض لعبادته . . سأل أبو ذر الغفارى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع فى الأرض ، فقال : « المسجد الحرام ثم المسجد الأقصى » . . وفى حديث نبوى آخر ، قال النبى عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » . . والله جل جلاله عرف مسجد القدس بأنه ﴿ **المسجد الأقصى الذى باركنا حوله** ﴾ .

ولهذا كله ارتبط بيت المقدس بالإسلام منذ أيامه الأولى . . وكان أول مكان هفت إليه أفئدة المسلمين وتطلعت إليه أبصارهم خارج الجزيرة العربية . . بل إن غزوتين من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم سارتا صوب بيت المقدس . .

وهل كانت غزوة مؤتة ، ثم غزوة تبوك ، فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلا اتجاها إلى بيت المقدس ؟

وباديء ذى بدء ، يجب أن نعرف أين تقع « مؤتة » وأين تقع «تبوك» . . إن مؤتة تقع الآن داخل المملكة الأردنية . . وقد صارت مدينة كبيرة ، وقامت فيها جامعة من الأساتذة والطلاب اسمها جامعة «مؤتة» . . وقد أحسنت حكومة الأردن صنعا بإطلاق اسم الغزوة الإسلامية المبكرة على جامعة من الأساتذة والطلاب ، لتتذكر الأجيال وتتدبر مغزى هذا التحرك الإسلامى صوب القدس .

أما تبوك فتقع فى أقصى الجزيرة العربية إلى الشمال ، على مشارف الشام ، وهى تواجه قرية نويبع المصرية ، التى تقع قريبًا جدًّا من الحدود بين مصر وفلسطين . . أو ما تصوره خرائط هذه الأيام بأنها حدود بين مصر وإسرائيل .

إن هاتين الغزوتين لم تكونا فى مواجهة قبيلة من قبائل العرب . . بل كانتا فى مواجهة الرومان ، وهم حينذاك إمبراطورية هائلة جبارة ، لها جيوش جرارة . . فلم يجفل المسلمون ، ولم يقعدوا ، بل خرجوا من جزيرتهم وساروا شمالا لمواجهة الرومان . .

* * *

وكان الرومان يحكمون الشام . . والشام فى ذلك العهد ، وإلى عهد

قريب جدًّا ، كان يضم أربعة أقطار أطلق عليها فيما بعد أسماء فلسطين والأردن وسورية ولبنان . . وحسبى وحسبك الله ، عندما نرى أن الخرائط الحديثة حذفت اسمْ فلسطين وأحلت محله كلمة إسرائيل !

واتجه المسلمون فى غزوة مؤتة إلى الجزء الملاصق للجزيرة العربية من أرض الشام ، أى إلى فلسطين وفيها بيت المقدس . . وقرية مؤتة التى سميت الغزوة باسمها تقع إلى أقصى الشمال على الطريق الممتد من الجزيرة إلى فلسطين .

أما لماذا كانت هذه الغزوة التى قام بها المسلمون ، وهم لا يزالون قلة فى العدد يحيط بها الأعداء الأشداء من كل جانب . . لماذا ساروا يقصدون إلى قتال الروم الذين كانوا يومئذ أكبر قوة على الأرض . . فإن كتّاب السيرة والتاريخ ، قديما وحديثًا ، يقولون إن تلك الغزوة كانت انتقاما من قيصر الروم هرقل ، لأن أحد ولاته قتل رجلا جاء إليه موفدًا من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم .

هل يعقل أن يدخل المسلمون القلائل فى حرب مع إمبراطورية الروم ، لأن واحدًا منهم قتل ؟ . . بينما حدث فى الوقت نفسه أن بعث الرسول بخمسين رجلاً إلى قبيلة بنى سليم يدعونها إلى الإسلام ، فقتلت القبيلة الرجال الخمسين جميعًا ، لم ينج منهم إلا رجل واحد . . ومع هذا لم يجرد المسلمون سلاحًا ولم يشنوا حربًا على تلك القبيلة .

ولنفترض أن المسلمين أنسوا فى أنفسهم القدرة على أن يحاربوا إمبراطورية كبيرة قوية . . ألم يكن من الممكن أن يحاربوا الفرس بدلا من أن يحاربوا الروم ؟ . . فعندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام برسائله إلى الملوك والحكام يدعوهم إلى الإسلام ، تلقى قيصر الروم الرسالة ، وقرأها أو استمع إليها فى تأدب واحترام ، ورد عليها ردًّا رقيقًا مهذبًا ،

وحمَّل من جاء بالرسالة بعض الهدايا . . أما كسرى فارس ، فقد استشاط غضبًا ، ومزق الرسالة ، وأرسل إلى أحد عماله يأمره أن يأتيه برأس ذلك الرجل فى الحجاز .

فلو كان للمسلمين يومئذ أن يحاربوا خارج الجزيرة العربية ، وأن يحاربوا ردًّا للإساءة ، أو اتقاء لشر يدبر ضدهم أو غزو خارجىّ يتوقعون أن يقتحم بلادهم . . فقد كان طبيعيًّا أن تكون حملتهم الأولى موجهة إلى الفرس ، لا إلى الروم .

فلم يكن الفرس أقوى شوكة وأشد بأسا من الروم . . بل كان الأمر على النقيض من هذا . . بعد أن انتهت سلسلة من الحروب بين الفرس والروم ، انتهت بهزيمة الفرس وغلبة الروم ، كما أنبأ القرآن الكريم من قبل فى قوله تعالى :

﴿ الم *غلبت الروم*فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ .

وكان المسلمون يتعاطفون مع الروم فى حربهم مع الفرس . . وقد ابتأسوا عندما انتصر الفرس ومنى الروم بالهزيمة أول الأمر . . فبشر القرآن الكريم بأن الروم سيكسبون الحرب آخر الأمر . . ولعل من أسباب هذا التعاطف مع الروم ، أنهم كانوا قد اعتنقوا المسيحية وصاروا من أهل الكتاب . . أما الفرس فكانوا من المجوس ، ويضعهم الإسلام مع الكفار فى صف واحد . . وكان عداؤهم للمسلمين ، وللعرب عامة ، أشد وأعمق من عداء الروم .

فلماذا يبدأ المسلمون أول معركة لهم خارج بلادهم بمحاربة الروم المنتصرين ، وكان أيسر عليهم أن يحاربوا الفرس المهزومين ؟

لابد أن سببا قويا ، وغاية عظيمة وهدفا كبيرًا . . قد حملت المسلمين

على أن تكون أول حرب يخوضونها ، خارج الجزيرة العربية ، هى حربهم مع الروم . . وأن يكون أول قطر يسيرون إليه عبر الصحارى والآماد الشاسعة ، هو فلسطين التى كانت تحت حكم الروم . .

ولا سبب أقوى ، ولا غاية أعظم ، ولا هدف أكبر وأسمى . . من القدس الشريف . . لما له من المكانة العزيزة عند الرسول وعند المسلمين.

* * *

وأعد الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاثة آلاف رجل . .

وصغر حجم هذا الجيش . . بل هذه الكتيبة الصغيرة . . يدل على أن المسلمين ، لم يقصدوا إلى مواجهة الروم والاشتباك معهم فى معركة حربية ، لا تعادل فيها ولا تقارب بين القوتين ، عددًا وعدة وسلاحًا . . فلم تكن غزوات الرسول مغامرات عسكرية بلا ضابط ولا حساب . . ولم يحارب المسلمون ، فى ذلك العهد ، حربا واحدة عن نزوة طارئة أو انفعال طائش . . وعندما كانت فئتهم الصغيرة تغلب الفئات الكبيرة بإذن الله . . فإنما كان هذا بعد وضع خطة محكمة وإعداد طويل ، وبعد أن يوقن المسلمون كل الإيقان أن لا سبيل إلى الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم إلا أن يحملوا السلاح ويخوضوا معركة القتال . .

وعين الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الكتيبة ثلاثة أفراد . . كلما سقط واحد منهم قتيلاً خلفه الآخر . . فعين زيد بن حارثة قائدًا للحملة . . فإن أصيب زيد فيخلفه جعفر بن أبى طالب . . فإن أصيب جعفر فيخلفه عبد الله بن رواحة .

وسار الرسول الكريم مع الجيش حتى ظاهر المدينة . . وأوصاهم

وصية ، هى حتى يومنا هذا أرقى من نصوص القانون الدولى الحديث . . وأرقى قطعا من ممارسات الدول المتمدينة المتقدمة فى عصرنا الحديث هذا . . أوصى الرسول رجاله ألا يقاتلوا النساء ولا الأطفال . . ولا الصبيان ولا الضعاف . . ولا المكفوفين . . وألا يهدموا المنازل . . وألا يقطعوا الأشجار . . وأن يتركوا المنقطعين إلى العبادة إلى ما هم فيه .

ودعا الرسول ، ودعا المودعون من ورائه ، لهذا الجيش الصغير الباسل : « صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا سالمين » .

* * *

وسار الجيش حتى بلغ مشارف فلسطين . . وهناك سمعوا أن الرومان حشدوا جيشًا عرموما من مائة ألف مقاتل . . وقيل إنه من مائتى ألف . . وسمعوا أن قيصر الروم هرقل يقود الجيش بنفسه ، وقيل إن أخاه تيودور هو الذى يقود الجيش . . وكان نصف الجيش من الجنود الرومان ، ونصفه من قبائل العرب فى تلك المنطقة ، ومن اليونان الذين كانوا يحترفون فى تلك الأيام مهنة « الجنود المرتزقة » فى الجيوش الرومانية ، ومن قبل هذا فى الجيوش المصرية .

بلغ المسلمين أمر هذا الجيش الجرار ، فماذا يصنعون وهم كتيبة من ثلاثة آلاف ؟!

قال قائل منهم : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لنخبره بعدد الجيش الذى حشده الرومان ، ونطلب إليه مددًا كبيرًا من الرجال ، أو يأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر فنمضى إليه . . وكادوا يتفقون على هذا الرأى . . إلا أن عبد الله بن رواحة ، صاح فيهم بكلمات مثيرة : « ياقوم ! . . والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون . . الشهادة » !

نعم . . فقد خرجوا يطلبون الاستشهاد فى سبيل الله . . فهل يخافون وينكصون ، عندما جاءت ساعة الاستشهاد ؟

كان الاستشهاد فى سبيل الله ، ودفاعًا عن دين الله ، أحد الهدفين أمام المسلمين فى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى حروبهم فى صدر الإسلام . . وكان هدفا يتعادل ، وقد يسمو ويعلو ويكون عندهم وعند أهلهم أعز وأكرم من هدف الغلبة والانتصار . .

ثم قال ابن رواحة : ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، « فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين . . إما ظهور ونصر وإما شهادة » .

وانطلقوا . . حتى لقوا جيش الرومان الهائل عند قرية مؤتة . . ودار القتال بين ثلاثة آلاف من المسلمين ، وبين مائة ألف أو مائتى ألف ، من الرومان واليونان !

حارب المسلمون ، لا لينتصروا على الأعداء ، وإنما حاربوا ليموتوا طلبا للشهادة . .

* * *

ها هو ذا زيد بن حارثة قائد الجيش يحمل الراية التى سلمها له رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويندفع وسط الرماح المسددة ، ويتلقى بصدره السهام ، وسرعان ما يتمزق جسده ويهوى .

فيتداول الراية من يده جعفر بن أبى طالب ، وهو شاب فى الثالثة والثلاثين ، وكان وسيما ، وكان بليغًا ، بقدر ما كان باسلا شجاعا . . إنه هو الذى قاد المهاجرين المسلمين إلى الحبشة ، ووقف أمام النجاشى يشرح له مبادئ الإسلام ، ويتلو عليه سورة مريم من القرآن الكريم ،

فتسيل دموع النجاشى . . ها هو ذا الآن وسط المعركة ، يرفع سيفه ويهوى به فوق الرءوس . . فقطعته سيوف الأعداء . . قطعت يمينه التى يحمل بها الراية ، فحملها بشماله فقطعت . . فضم الراية بين عضديه . . فضربه محارب من جيش الروم فقطع جسمه نصفين .

وأخذ عبد الله بن رواحة الراية وتقدم . . وقاتل حتى قتل . . واستشهد الثلاثة الذين اختارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيادة الجيش ، فاختاروا خالد بن الوليد ليقودهم ، فى تلك الساعة العصيبة . . فكانت هذه هى أول معركة يظهر فيها مواهبه العسكرية ، التى جعلت منه ، فى المعارك الكبرى فيما بعد ، واحدًا من أعظم قواد التاريخ فى المناورات العسكرية وفى تحريك الجيوش . . واستطاع القائد الشاب أن يقوم بحركة ماهرة . . وأن يحدث ضجيجًا صاخبًا فى معسكر المسلمين . . فتوهم الرومان أن إمدادات كبيرة قد وصلت إلى المسلمين ، فراحوا يوزعون جيشهم توزيعًا جديدًا . . وبينما هم مشغولون بذلك ، استطاع خالد بن الوليد أن ينسحب بجيشه ويتجه قافلاً إلى المدينة .

قبل أن يصل الجيش إلى المدينة . . بل قبل أن تصل أنباء المعركة إلى المدينة . . قام رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيما رواه أنس بن مالك وأخرجه البخارى ، ينعى إلى الناس من استشهد من المسلمين . . نعى زيدًا ، ونعى جعفرًا ، ونعى ابن رواحة فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب . . ثم أخذها جعفر فأصيب . . ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب . . وإن عينى رسول الله لتذرفان بالدموع . . ثم أخذها سيف من سيوف الله ، خالد بن الوليد ، من غير أمر . . ففتح الله تعالى له » .

تقدم خالد إلى القيادة والصدارة ، مع أنه لم يكن معينا بأمر

الرسول . . وفتح الله له . . فلقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم باللقب الذى ظل جديرًا به . . لقب عظيم وعظيم . . هو سيف الله .

عاد الجيش إلى المدينة قافلاً ، واستقبله الناس استقبالا سيئًا . . بل كانوا يحثون التراب على العائدين ، ويصيحون بهم : يافرار . . فررتم من أعداء الله !

وأخذ الرسول عليه الصلاة والسلام يهدئ من غضب الناس وثائرتهم، ويقول : ليسوا بالفرار . . ولكنهم الكرار بإذن الله .

كلمة تنبئ بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف يستأنف الجهاد فى هذا الطريق . . وأن المسلمين سوف يكرون مرة أخرى إلى هذا الهدف البعيد . . وقد كروا مرة ثانية . . ومرات أخرى ، حتى فتح الله لهم ودخلوا القدس الشريف .

* * *

هل انتهى تطلع المسلمين إلى القدس الشريف ، وسعيهم إلى المدينة التى وضع فيها المسجد الأقصى ، وفيها الصخرة التى عرج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنة المأوى ، عند غزوة مؤتة التى عاد منها المسلمون فُلُولا ، يعيرهم الناس فى المدينة بأنهم الفرار من أعداء الله ؟

وماذا عما أنبأ به رسول الله عندما قال عن العائدين من غزوة مؤتة : «ليسوا بالفرار . . ولكنهم الكرار بإذن الله ؟ » .

٢ ـ اقترب المسلمون من القدس ..
فوجدوا عالما مسيحيا يرحب بهم

متى .. وكيف .. عاد المسلمون فاستأنفوا الجهاد ، سعيا إلى القدس الشريف ؟

لقد وقعت أحداث وأحداث كبار بعد غزوة مؤتة .. ففى العام التالى كان فتح مكة العظيم .. فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله ووراءه آلاف وآلاف من المسلمين ، منهم من يحمل السلاح ومنهم من لا يحمل سلاحا ، وكان هؤلاء وهؤلاء سيان ، فلن يرفع السلاح فى فتح مكة المكرمة .. وتم الفتح دون أن تراق قطرة من الدماء ، ودون أن تشوب جلاله شائبة من الثأر والانتقام .. فنبى الإسلام يؤمن بحرمة مكة ، ويؤمن بأنه يحرم فيها سفك الدماء .. أو حتى أن تقطع فيها الأشجار !

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجموع المحتشدة حوله خطبة ، قال فيها : يأيها الناس .. إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة .. لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماء ، أو يُعْضِد « يقطع » شجرة .. لم تَحْلِلْ لأحد كان قبلى ولا تَحِلّ لأحد يكون بعدى ، ولم تَحْلِلْ

إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس . . فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أما أهل مكة ، الذين طالما آذوه ومن اتبعه ، وائتمروا به ليقتلوه ، ثم أخرجوه منها وهى أحب البلاد إليه . . ثم لاحقوه بالتآمر والحصار والتجويع والحرب والتقتيل . . أما هؤلاء ، فقد نظر إليهم الرسول الكريم نظرة تفيض عطفا وبرا وتسامحا ونبلاً . . وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء !

وعندما يرفع أحد المسلمين سلاحه ، ويصيح : هذا يوم الملحمة ! . . ينهاه الرسول صلى الله عليه وسلم وينحيه ، قائلاً : هذا يوم المرحمة . .

وأمضى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هذا سنتين يرتب فيها من أمور المجتمع الإسلامى الجديد ، وأمور الحكومة الإسلامية ، اللذين قاما فى المدينة . . ويتم نشر الإسلام فيما تبقى من أرجاء الجزيرة العربية . . ويقوم بآخر غزوة داخل الجزيرة ، وهى غزوة حنين ، ويعقد معاهدة الطائف . . ويصفى ما بقى فى الداخل من جيوب الوثنية واليهودية . . ويؤمن حدود الدولة الناشئة التى تحيط بها دول كبيرة قوية ، مازالت تنظر إلى هؤلاء العرب الجدد فى دهشة وذهول ، وتفكر فى أن تضربهم ضربة ساحقة قبل أن يشتد خطرهم ويستشرى !

وسط هذا العمل الكبير ، متعدد الجوانب متشعب الاتجاهات ، ظل القدس الشريف هدفا عظيماً ، يتطلع إليه المسلمون من بعيد . .

ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى غزوة كبيرة ، تتجه إلى بلاد الشام . .

وكانت غزوة تبوك ، وهى آخر غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام .

أين تقع تبوك ؟

إنها ـ كما سبق القول ـ فى أقصى شمال الجزيرة العربية ، وعلى مقربة من حدود الشام ، خارج الحدود المألوفة للجزيرة العربية فى ذلك الزمن . . وهى على مسيرة عشرين يوما وليلة من المدينة ، وعلى مسيرة يوم أو يومين من بيت المقدس .

إنها مكان بعيد جدًّا من المدينة . . ونعرف الآن أن الطائرة من المدينة إلى تبوك تقطع سبعمائة كيلو متر .

وصرح الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين بالوجهة التى ستتجه إليها هذه الغزوة . . وهو ما لم يعلنه فى بعض غزواته السابقة . . فقد كان يعلن عن اتجاه ، ويسير فى اتجاه آخر ، حتى لا يعرف العدو ، فيباغته حيث لا يتوقع . . أما هذه المرة فقد أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الغزوة متجهة إلى الشام .

وندب الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى المشاركة فى الغزوة ، أى إلى التطوع فيها دون أمر وتكليف . . وتطوع عدد كبير من المسلمين ، وخاصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلن أنه سيخرج فى الغزوة بنفسه ، وهو حينئذ قد شارف سن الستين . . ولكن عددًا آخر من المسلمين تقاعس عن المشاركة فى الغزوة ، فقد خامرهم الشك فى حكمة هذه الغزوة ، المتجهة إلى مقابلة جيش الروم الكبير . . ومهما يكن عددهم الآن ، ومهما تكن قوتهم ، فهم قلة لاقبل لها بمحاربة الإمبراطورية الكبرى وجيشها الجرار.

* * *

ثم إن الموعد المحدد للغزوة ، كان أشد فصول السنة حرارة ولهيبا . .

ففى الأيام التى يولى فيها الصيف ، وقبل أن يبدأ الخريف ، ترتفع الحرارة إلى درجة مخيفة ، بعد أن اختزنت الأرض حرارة الشمس طوال شهور الصيف ، فتصير رمال الصحراء وحصاها كقطع من الجمر . . ويشتعل الجسم بالسخونة ، فتنفض عروقه ، وتطلب فيضًا من الماء يملؤها ويرويها . . وأنى لهم الماء والزاد فى رحلة طويلة فى فجاج الصحراء الوعرة . . حتى يصلوا إلى الشام . . إذا وصلوا ؟!

أخذ بعض المسلمين يتقاعس ويتهرب . . وراح بعضهم يثبط همة الآخرين . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اعتزم أن يقوم بهذه الغزوة ، وأن يقودها متجها إلى الشام . . وأخذ يحث المسلمين على أن يبذلوا من أموالهم قدر ما يستطيعون . أما من ليس عنده مال ، فليلتمس مطية تحمله عبر الرحلة الطويلة فى شعاب الصحراء . .

كل هذه المتاعب والمشاق فى تكوين الجيش وتجهيزه ، جعلتهم يطلقون عليه اسم « جيش العسرة » .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم استطاع أن يعد جيشا من ثلاثين ألف رجل . . أى عشرة أمثال الكتيبة التى سيرها قبل سنوات قليلة فى غزوة مؤتة . . ولعل هذا كان أكبر جيش للمسلمين حتى ذلك الوقت .

فلماذا كل هذا الجهد والعناء والبذل والتصدى لأكبر المصاعب ، إلا أن يكون هناك هدف كبير وعزيز يريد المسلمون الوصول إليه ؟ ولا يمكن أن يكون الهدف المقصود هو مجرد ملاقاة الروم ومناوشتهم فى معركة لا تعادل فيها بين الطرفين . . ولا يمكن أن يكون الهدف هو مجرد إظهار قوة المسلمين ، عندما سمعوا أن الروم يفكرون فى الاعتداء عليهم . . فمثل هذه الغزوة قد تستفز الروم ، وتحفزهم إلى ضرب المسلمين !

* * *

لابد أن هناك هدفا كبيرًا يقتضى البذل كل البذل ، والعناء كل العناء، والتضحية كأقصى ما تكون التضحية . . ولابد أن يكون الهدف الذى يقصده المسلمون من غزوتهم هذه إلى بلاد الشام ، هو ذلك المكان المعظم . . القدس الشريف .

ووصل المسلمون إلى تبوك ، وعسكروا فيها عشرين يوما . . ولأمر ما ، لم يخرج جيش الروم لمواجهتهم وصدهم ومطاردتهم فى شعاب الصحراء . . وربما قدر الرومان أن وجهة المسلمين هى القدس ، فأرادوا أن يستدرجوهم إلى هناك ، وعندئذ يخرجون عليهم بجيش عرمرم ينزل بالمسلمين الهزيمة ويردهم مدحورين . . وينزع من قلوبهم أمل الوصول إلى القدس أو فتح الشام ، ما دام على الأرض هؤلاء الرومان الجبابرة .

ولكن الله ألهم المسلمين الحكمة ، فلم يتوغلوا فى الأرض ، وقرروا أن يعودوا . . فعادوا لامنتصرين ولامهزومين . . وعجب الناس من أمر تلك الغزوة التى انتهت كما بدأت . . بلاقتال . . وبلا غنيمة ، وبلا نتيجة .

ولكن الواقع ، أن غزوة تبوك كانت لها أهميتها ، ولها أثرها فيما ستأتى به الأيام من أحداث . .

لقد اقترب المسلمون فى هذه الغزوة من الهدف المقصود ، وهو القدس الشريف . . والتقوا لأول مرة بعالم مسيحى لقاء الأنداد والأقران . . بل كانوا أكثر قوة وأعلى يدا ، ممن لقوا من أهل تلك البلاد ، الذين كانوا يدينون بالمسيحية . . فكان لقاء يختلف عن لقائهم بالمسيحيين فى الحبشة، مهاجرين إليها من بطش قريش ، وملتجئين إلى النجاشى ملتمسين حمايته ورعايته . . فأما الآن ، فقد جاءوا فى جيش ليس بقليل العدد ، ولا بقليل التجربة ، وقد خاض جنوده من قبل معارك عديدة ، دافعوا فيها عن أنفسهم دفاع الأبطال المؤمنين ، وكان لهم النصر فى كل ما خاضوه من معارك .

لقد وجد المسلمون أن هذا العالم المسيحى الذى واجهوه ، لأول مرة ، ينظر إليهم نظرة احترام وإكبار . . فقد جاء وفد منهم إلى معسكر المسلمين يتقدمه يوحنة بن رؤبة ، أمير « أيلة » ، وهو الاسم الذى كان يطلق على ما نعرفه الآن باسم « العقبة » ، وما يحيط بها من قرى ، وبلاد تقع بين تبوك وبين القدس ، وكانت القدس فى ذلك الوقت تسمى «إيلياء » .

جاء أمير أيلة هذا ، وعلى صدره صليب كبير من الذهب ، وقدم الطاعة وقدم الهدايا من الطعام والكساء ، وقبل دفع « الجزية » ومقدارها ثلاثمائة دينار فى السنة . . وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب استهله بهذه الكلمات : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه « أمنة » ، أى عهد أمان ، من الله ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليوحنة بن رؤبة وأهل « أيلة » . . وأمنهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الكتاب « على أنفسهم ، وعلى سياراتهم فى البر وسفنهم فى البحر » .

هذا وضع جديد فى العلاقة بين المسلمين والمسيحيين . . ولابد أن هذا الوضع قد أشعر المسلمين بأنهم صاروا أصحاب حق ، وأصحاب نفوذ ، فى هذه المنطقة من الشام . . ولكن ما هو أهم من هذا وأبعد أثرا فيما سيأتى من أحداث ، هو أن المسلمين تبينوا بصورة واضحة شعور المسيحيين فى الشام تجاه الرومان . . وأحسوا بأن المسيحيين فى حاجة إلى من يخلصهم من حكم الرومان . . وقد رأوا أنهم لو جاءوا يوما يفتحون الشام ، فسوف يجدون ترحيبا من المسيحيين !

وهذا ما حدث فعلا بعد سنوات قليلة ، عندما دخل المسلمون القدس وسط ترحيب أهلها المسيحيين .

ثم مضى بعد هذا عامان . . عام الوفود ، الذى دخل فيه الناس فى دين الله أفواجًا ، فأقبلت على المدينة الوفود من جميع أنحاء الجزيرة العربية ، تمثل كل من فيها من قبائل وعشائر ، فأسلمت وبايعت . . ما من قبيلة من القبائل ، التى جاوز عددها ثلاثمائة قبيلة ، إلا أعلنت إسلامها ، وبايعت الله ورسوله . . ثم كان عام الوداع ، حين ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، على رأس أكبر حشد من الناس، شهدته الجزيرة العربية فى تاريخها . . حشد من مائة ألف مسلم أو يزيد . . وأقبل المسلمون من شتى أرجاء الجزيرة ليؤدوا فريضة الحج . . وأدى الرسول صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، وطاف بالكعبة التى كانت يومها قد تطهرت وتطهر ما حولها من الأوثان والأصنام . . وألقى الرسول صلى الله عليه وسلم خطبة الوداع التى بدأها، بعد حمد الله ، بقوله : أيها الناس . . اسمعوا قولى . . فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا . . ثم تلا عليهم الآية الكريمة ، التى جعلت الصحابة يشعرون بأن الأجل قد دنا ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم مفارقهم عن قريب . . تلا عليهم قول الله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ .

فى ذلك اليوم ، لم يبق بين أهل الجزيرة أحد على وثنيته وشركه ، وأسلم أهل الكتاب ، إلا من فضل أن يهاجر من بلاد المسلمين . .

وتم نصر الله . . وأظهر الله دين الحق على الدين كله .

فهل انصرفت أنظار المسلمين عن القدس الشريف ؟ وهل شغلهم عنها أن صارت الجزيرة كلها دار إسلام ؟

* * *

كانت غزوة تبوك إذن ، أشبه « بعملية استطلاعية » للمنطقة التى يعتزم المسلمون أن يحملوا إليها دعوة الإسلام عما قريب . . وحملة استطلاعية لمشاعر الناس فى تلك المنطقة تجاه حكام الرومان ، ولما ينتظر أن يكون « رد الفعل » عندهم حين يأتى المسلمون إلى بلادهم . . وقد كان من الضرورى أن يقوم المسلمون بهذه الحملة الاستطلاعية ، قبل أن يخرجوا من جزيرتهم إلى آفاق أوسع . . وقبل أن يخطوا الخطوة الأخيرة فى الطريق إلى القدس الشريف . .

فلنتأمل قليلاً ما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن عاد إلى المدينة من حجة الوداع ، وفى خلال الأيام الأخيرة من حياته :

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتجهيز جيش كبير ، يتجه فى نفس الاتجاه الذى سار فيه المسلمون من قبل ، فى غزوتى مؤتة وتبوك . . وأمر بأن يشترك فى هذا الجيش كبار الصحابة ، ومنهم أبو بكر وعمر . . ووضع على رأس الجيش فتى شابا لا يتجاوز العشرين من عمره ، هو أسامة بن زيد . . فأبوه زيد بن حارثة كان من قبل قائدًا فى غزوة مؤتة ، وقد استشهد فيها . . فاختار الرسول الحكيم ابنه ليقود الجيش . . ومسح الرسول صلى الله عليه وسلم على صدر الشاب الذى سوف يقاتل حيث قتل أبوه . . وليكمل المسيرة التى بدأها أبوه !

واستعد الجيش العرمرم للمسيرة الثالثة شطر بلاد الشام . . واجتمع الجيش خارج المدينة ، استعدادًا للمسيرة . . وعندئذ ، بلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ألم به المرض . . ثم بلغهم أن وطأة المرض اشتدت على الرسول صلى الله عليه وسلم . . وشغل الناس بالأمر ، وألم بهم القلق . . فتوقف الجيش ريثما ينجلى الأمر .

٣ ـ وكان أول أمر أصدره أبو بكر ..
تسيير الجيش إلى فلسطين

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى .

وجاء الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ، فماذا يكون أول عمل يبدأ به خلافته ؟ . . لابد أن يبدأ خليفة رسول الله عمله ، حيث انتهى عمل رسول الله . . وقد كان آخر عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يفارق هذه الدنيا هو إعداد جيش يحمل راية الإسلام ، ويحمل دعوة الإسلام ، ويتجه إلى بلاد الشام . . التى تضم القدس الشريف ـ الشريف منذ وضع فيه المسجد الأقصى ، والشريف بصخرته التى عرج منها الرسول إلى جنة المأوى .

وما هى إلا أيام على ولاية أبى بكر الصديق ، حتى كان جيش المسلمين يسير متجها إلى الشام . . بل متجها إلى القدس الشريف .

* * *

لم تنصرف أنظار المسلمين عن القدس الشريف ، حتى فى أشد الأوقات صعوبة ، وأشد المواقف حرجا وخطرًا .

لم تنصرف أنظارهم عن التطلع إلى القدس ، فى تلك الأيام العصيبة

التى واجهوا فيها فتنة « الردة » . . وهى فتنة انتشرت فى الجزيرة العربية ، جنوبا وشمالا ، انتشار النار فى الهشيم ، وامتدت ألسنة اللهب إلى قلب الجزيرة فى مكة نفسها . .

فما إن ترامت إلى قبائل العرب الأخبار بأن محمدًا عليه الصلاة والسلام فارق هذه الحياة إلى جوار ربه ، حتى وجدوها فرصة مواتية لينزعوا عن أنفسهم ثوب الإسلام ، ويخرجوا من هذا الدين الذى أدخل عليهم مبادئ وأوضاعا ، تناقض الحياة التى ألفوها ، وجاء بشريعة وسن قوانين تغل أيديهم عما كانوا يمرحون فيه من مفاسد ومن مظالم ، ومن تكبر وتجبر ، ومن استعلاء يستذل به الأسياد رقاب العبيد ، ويغتال به الأقوياء حياة المستضعفين . .

حينئذ ، انقلب كثير ممن أسلموا على أعقابهم . . لأن كثيرًا من هؤلاء الناس ، كانوا قد أعلنوا إسلامهم ، ولكنهم لم يؤمنوا ، دخلوا بألسنتهم فى الإسلام ، أما الإيمان فلم يدخل فى قلوبهم .

إن كثيرًا من قبائل العرب أعلنت الإسلام ، بعد سنين طويلة من المكابرة والعداوة والقتال . . ولم تقبل الإسلام إلا بعد أن رأت كلمة المسلمين تعلو وقوتهم تزداد . . وكان هذا أيضا شأن قبائل أخرى ، أسلمت محاكاة لقبائل أخرى أكثر منهم عددًا وأعلى ذكرا ، لأن الضعيف يزحف دائمًا وراء القوى خوفا أو طمعا . . وكذلك كانت هناك تلك القبائل العديدة التى تعيش فى أطراف الجزيرة العربية ، فى اليمن جنوبا ، وعلى ساحل الخليج شمالا ، وبسبب بعدها هذا عن منزل الوحى فى مكة والمدينة ، وبعدها عن الرسول وصحابته من حفظة القرآن ومن دعاة الإسلام ـ كان أهلها بعيدين عن التأثر العميق بعقيدة الإسلام ، وبحكمة مبادئه وشريعته . . فلم ينفذ الإسلام إلى قلوبهم ، ولم يرسخ

فى نفوسهم ، بل رأوا فيه قيودًا على حريتهم ، وانتقاصا من امتيازاتهم ، فما كادت تسنح لهم فرصة الخروج من الإسلام حتى خرجوا وارتدوا .

* * *

وأما من لم يرتد عن الإسلام ، فقد اكتفى بأن يسقط فريضة من فرائضه . . فريضة الزكاة التى هى الركن الثالث من أركان الإسلام الخمسة . . وكانت هذه الفريضة عند كثير من أولئك المسلمين ، هى أثقل الفرائض عليهم ؛ فإنهم لم يعرفوا مثيلاً لها من قبل . . وهل عرف الناس ، فى أى مكان فى العالم قبل الإسلام ، « ضريبة » تفرض على الغنى القادر ، لكى ينفق منها على الفقير والمسكين ؟ . .

إن الزكاة ، فى نظر أولئك الأغنياء القادرين ، شىء لا معنى له ، فهم يتساءلون ، ويقولون : ﴿ **أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين** ﴾ ! . . ومهما تكن هذه الزكاة زهيدة قليلة ، فهى عبء ثقيل على كاهل الغنى الذى يبتلى بحب المال ، وكلما زاد ماله أصابه السعار وطلب المزيد . .

ثم راحت تلك القبائل تتساءل : لماذا تذهب حصيلة هذه الضريبة إلى بيت المال فى المدينة ؟ ولماذا تختص المدينة وحدها بكل ما يجمع من أموال الزكاة ؟ . . وهم يعرفون جواب سؤالهم ، ولكنهم كانوا يكابرون . . فزكاة المال تنفق على الفقراء واليتامى وأبناء السبيل ، ومن يستحقها من المجاهدين ، سواء كانوا فى المدينة أو فى أى مكان آخر .

إنهم ، فى الواقع ، يريدون التخلص من حكومة الإسلام فى المدينة ، وما تفرضه عليهم من شريعة وقوانين ، فتحركوا قبيلة أثر قبيلة ، متمردين على حكومة الإسلام ، ومبتدئين ثورتهم بالامتناع عن دفع

الزكاة . . وسرعان ما انتشرت هذه الفتنة فى أرجاء الجزيرة العربية ، خلال الأيام الأولى التى تولى فيها أبو بكر ولاية المسلمين .

فماذا يفعل أبو بكر رضى الله عنه فى هذا الموقف الخطير ؟

الشيء الطبيعى ، هو أن يعبئ كل قوى المسلمين لمواجهة هذا الخطرالداهم ، ولمحاربة هؤلاء المرتدين . . وأن يصرف النظر عن تلك الحملة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعدها إعدادًا كاملاً قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وجند لها كل المسلمين المجاهدين بمن فيهم أبو بكر نفسه ، وعين قائدها الفتى الشاب أسامة بن زيد . . وعين الرسول على وجه التحديد وجهتها ومداها . . وهى أن تطأ خيل المسلمين تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين . . وأن يتم ذلك دراكا « سريعا » . . وعندئذ يسرع أسامة بالعودة غانما بإذن الله . .

* * *

كان الأمر الطبيعى والمنطقى ، هو أن تعبأ كل القوى وتركز كل الجهود، على مقاومة خطر الردة ، وردع المرتدين المتمردين . . وهذا واجب إسلامى وفريضة لاشك فيها . . لأن الردة الجماعية هى فتنة كبرى وثورة على الإسلام ، وينبغى أن يوقع على القائمين بها والمشاركين فيها عقوبة الردة ، وهى القتل . . وهذه الردة الجماعية ، تختلف عن ارتداد فرد من الأفراد عن الإسلام ، فهذا جزاؤه عند الله يوم الحساب ، أما فى هذه الدنيا فالقاعدة الأساسية فى الإسلام أنه لا إكراه فى الدين . . على شرط ألا يكون اعتناق الدين أو تركه سعيًا وراء مصلحة خاصة . . يعتنق الإسلام ليتزوج امرأة أو ليطلق زوجة . . ثم يرتد عن الإسلام بعد أن حقق بغيته الخاصة ، أو سعيًا إلى منفعة شخصية أو مصلحة مادية أخرى .

الردة الجماعية فتنة وثورة تفرض على المسلمين حمل السلاح وقتال المرتدين ، دفاعًا عن الإسلام وعن كيان المسلمين . . أما أن يرتد فرد أو بضعة أفراد عن الإسلام ، فإن هذا لن يضير الإسلام فى كثير أو قليل . . على ألا تصحب هذه الردة أفعال أو أقوال تسىء إلى الإسلام وتشوه صورته الوضاءة .

إن أبا بكر ومن معه من المسلمين جميعًا ، كانوا مطالبين بأن يجمعوا قواهم ، ويركزوا جهودهم للتصدى للردة ولمحاربة المرتدين . . وقد أشار بهذا الرأى كثير من قادة المدينة ، ممن لهم حق المشورة على ولى الأمر أبى بكر الصديق . . وقال كثير من المسلمين : ما لنا الآن والبلقاء والداروم وتخوم فلسطين ، بينما الإسلام يهدد تهديدًا خطيرًا فى أرضه ، بل فى مهده، فى مكة التى سرى إليها تيار الردة عن الإسلام ، مثلما سرى فى شتى أرجاء الجزيرة العربية ؟ .

وقال أصحاب الرأى والمشورة . . لو كان عند المسلمين كثرة من الجند ووفرة من السلاح ، لوافقنا على إرسال فريق إلى الشمال يصل إلى أرض فلسطين . . وأبقينا أكثر الجند هنا ليحموا المدينة أولا ، فهى عاصمة الدولة ، ولينتشروا فى أرجاء الجزيرة المترامية لمواجهة الردة ومقاتلة المرتدين . . وبخاصة أولئك المشعوذون الذين ظهروا فى اليمن وفى غير اليمن . . مدعين النبوة ، ويجرون وراءهم من الأتباع والأشياع والمرتزقة ما جعل المسلمين شبه محاصرين فى المدينة بلا مدافع ولا حارس .

كلام معقول ومنطقى . . ولاشك ! . .

ولكن أبا بكر له رأى آخر . . ولن يحيد عنه أبدًا .

لابد أن أبا بكر رضى الله عنه كان يقول لنفسه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعد هذا الجيش ويسيره فى هذا الاتجاه ، إلا لأمر عظيم

يعلمه الله ، وكان يعلمه من تلقى الوحى من الله . . لابد أن وراء هذه الحملة دافعًا عظيمًا ، وأن أمامها هدفًا عظيمًا . . هل كان الدافع ، هو صد الروم عن الجزيرة العربية ، إذا ما سولت لهم أنفسهم غزوها وقهر المسلمين فيئدون الإسلام فى مهده ؟ . . أم هل الهدف هو الوصول إلى أرض البلقاء والداروم فى فلسطين ، بغية الوصول إلى القدس الشريف لما له من مكانه وجلال عند الله وعند الرسول ؟

لابد أن أبا بكر كان يقول لنفسه : كيف أوقف هذه الحملة التى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بها . . وصمم على إنفاذها ؟ . . حتى بعد أن علم أن بعض المسلمين أبدوا تذمرهم من هذه الحملة الذاهبة إلى أقصى الشمال ، وتذمرهم على الأخص من أن تكون قيادتها لشاب حدث فى العشرين من عمره ، هو أسامة بن زيد ؟

لقد كان أبو بكر هناك ، عندما بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أن بعض المسلمين أبدوا تذمرهم من الحملة ومن قيادتها . . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم عندئذ فى مرضه الأخير فغالب المرض ، وأمر أن تراق عليه سبع قرب من الماء حتى تخف عنه الحمى . . ثم خرج إلى المسجد ، وقال : أيها الناس أنفذوا بعث أسامة . . ثم وجه اللوم إلى من يعترض على قيادة أسامة لأنه شاب صغير ، وهم الذين اعترضوا من قبل على قيادة أبيه زيد بن حارثة ، فى غزوة مؤتة ، لأنه لم يكن من علية القوم وأشرافهم ، بل كان عبدًا أعتقه الإسلام ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى المسجد : لقد قلتم فى إمارته « إمارة أسامة » ما قلتم فى إمارة أبيه من قبل . . وإنه لخليق بالإمارة . . وإن كان أبوه لخليقًا بها .

ويعرف أبو بكر أيضًا أنه فى ساعة الصحوة التى تسبق الموت . دخل

أسامة على الرسول صلى الله عليه وسلم . . واستأذن فى السير بالجيش . . فأذن له الرسول صلى الله عليه وسلم . . وكانت ساعة الموت قد دنت ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم صامتا ، وكان يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة . . فأدرك الشاب وأحس بأن الرسول يدعو له فى هذه الساعة الأخيرة من حياته . . دعاء يقتدى به الأب الصالح والأم الصالحة فى دعائهما قبل الموت للأولاد البررة . .

هذا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فهل ينقض أبو بكر أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ . . هل يصرف الجيش عن وجهته التى حددها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى مشارف فلسطين ، ويختار له وجهة أخرى هى محاربة المرتدين المتمردين فى اليمن . . أو فى البحرين . . أو فى اليمامة . . أو فى مكة . . أو حيثما انتشرت فتنة الردة التى عمت أرجاء الجزيرة ؟

هذا ما لا يمكن أن يفعله أبو بكر الصديق ، وهو الصديق لكل ما يقوله ويفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإذن فليكن أول أمر يصدره خليفة رسول الله أمرًا حازمًا قاطعًا ، هذا نصه : « ليتم بعث أسامة» .

وأخذ كبار المسلمين يحاورونه ويجادلونه ، فى حكمة إرسال هذا الجيش إلى فلسطين فى ذلك الوقت العصيب . . ويقولون له إن قبائل العرب فى كل مكان قد ثارت وتمردت . . وكثير منها ارتدت عن الإسلام . . وكثير منها أعلن الامتناع عن دفع ضريبة الزكاة . . فلماذا ننفر من بقى منهم على الإسلام وشريعته بهذه الحملة التى يقودها صبى لم يبلغ سن العشرين ؟ . . فيضيق بهم أبو بكر ويخاطبهم مغضبًا ، فيقول : «والذى نفس أبى بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تخطفنى ،

لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته » .

ويشتد غضبه على أقرب الناس من حوله ، وهو عمر بن الخطاب ، عندما ذهب نيابة عن المسلمين يقول له إنه إذا كان مصرًا على إرسال هذا الجيش ، فإنهم سيخضعون لأمره ويمضون . . ولكن تحت قيادة رجل آخر أكبر سنا من أسامة . . فيصيح أبو بكر فى عمر رضى الله عنهما قائلاً: « ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب ! استعمله ـ أسامة ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه ! » .

* * *

وخرج أبو بكر يشيع الجيش المتجه إلى أرض البلقاء والداروم على مقربة من القدس الشريف .

وسار على قدميه ، بينما الشاب أسامة يمتطى الجواد الذى مات عليه أبوه فى غزوة مؤتة ! . . وغلب الحياء على أسامة ، فقال لخليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن . . فقال أبو بكر: « والله لا تنزل ووالله لا أركب . . وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة » .

ثم استأذن الخليفة الجليل من القائد الشاب ، أن يعفى عمر بن الخطاب من المشاركة فى الحملة ، ليستعين به وبرأيه فى إدارة الأمور فى ذلك الوقت العصيب . . وقال لأسامة : « إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل » فأذن أسامة لعمر أن يبقى فى المدينة .

وعند مشارف المدينة ، اصطف الجيش والتف ، ليستمع إلى خطاب يلقيه خليفة رسول الله وحاكم المسلمين . . فلنستمع نحن اليوم إلى هذا الخطاب العظيم . . لنستمع ونقرأ من الأوامر والوصايا ما لم ترق إلى مثله

الإنسانية حتى يومنا هذا ، بكل ما وضعت من قواعد القانون الدولى ، ومن قوانين للحرب والسلام ، ومن معاهدات واتفاقيات فى جنيف وغير جنيف . . وفى الأمم المتحدة وفى المؤتمرات الدولية الكبرى . . لقد أوصى أبو بكر جيش المسلمين بعشر وصايا عظيمة ، منها :

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة » .

« ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوا ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا . . إلا لمأكلة » .

« وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

« وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام (لعله يشير إلى المسيحيين فى فلسطين وما حولها) ، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه » .

ويختتم خطابه داعيًا لهم بالنصر والسلام وقائلاً لهم : « اندفعوا باسم الله » .

وسار الجيش متجها إلى المنطقة التى حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . سار عشرين يوما يقطع الصحراء الملتهبة بحرارة الشمس فى شهر يونيو . . حتى بلغوا مؤتة حيث استشهد زيد بن حارثة . . وصلى أسامة بن زيد ودعا لوالده الشهيد ومن قتل معه من الشهداء . . ثم بث خيوله فى صفوف مواجهة للأعداء ، ومضى هو وجنوده إلى الأمام حتى بلغوا الهدف الذى حدده لهم الرسول نفسه ، وأكده لهم خليفة الرسول ، فوطئت خيولهم البلقاء والداروم من أرض فلسطين . . فلما تم له هذا ،

لم يتجاوز الهدف المحدد ، ولم يفتنه الغرور فيستدرجه إلى ملاقاة جيش الروم ، وإنما عاد بجيشه سالمًا ومظفرًا إلى المدينة ، حيث تلقاه أهلها بكل تحية وإكبار .

وكان أبو بكر نفسه عند مشارف المدينة ، يستقبل البطل الشاب وجنوده المظفرين .

* * *

ماذا كسب المسلمون من وراء هذه الحملة التى أصر أبو بكر على إرسالها فى وقت بالغ الحرج والخطورة ؟ حتى إن المدينة نفسها ، وهى عاصمة الدولة الناشئة ، بقيت بلا حراسة وحماية ، بينما أخطار الردة والفتنة والثورة تحيط بها من كل جانب ؟

غريب أن يتحدث عديد من المؤرخين القدماء والمحدثين عما عاد به أسامة بن زيد من مغانم ، كقطعان من الإبل يسوقها وراءه . . أو كعدد من الأسرى وقعوا فى أيدى المسلمين . . أو حتى عما أظهرته هذه الحملة من قوة المسلمين ، فجعلت بعض المرتدين يفكرون فى الأمر مليا ، ويثوبون إلى رشدهم بعد أن فقدوه . . وربما جعلت الرومان أيضًا يحسبون حساب المسلمين الذين خرجوا لأول مرة خارج حدود جزيرة العرب وراحوا يقاتلون .

غريب أن يكون هذا هو كل ما يذكره المؤرخون عما كسبه المسلمون من هذه الحملة الناجحة !

ولكن الواقع ، أن هذه الحملة ، على صغرها ، كانت هى الفاتحة . . هى فاتحة الفتوح الكبرى التى بدأت بعد هذا بقليل . . هى النقطة التى انطلق منها المسلمون بعد أقل من سنتين يفتحون الشام . . ويواجهون

جيوش الرومان . . ويهزمون تلك الجيوش فى كل ما نشب من معارك . . ويرفعون راية الإسلام فوق ربوع فلسطين وما وراء فلسطين شمالاً وشرقًا وسائر بلاد الشام .

لقد كانت هى الحملة الثالثة ، التى مهد بها المسلمون طريقهم إلى القدس الشريف . . كانت الأولى هى غزوة مؤتة . . وكانت الثانية هى غزوة تبوك . . ثم كانت حملة أسامة بن زيد هى الثالثة . . فعرف المسلمون الطريق جيدًا ، وعرفوا من فيه من أعداء ومدى قوتهم . . وعرفوا من فيه ممن يمكن أن يفتح لهم الأبواب ، ويتلقاهم مرحبا ، ليخلصهم المسلمون من نير الرومان واضطهادهم .

* * *

٤ ـ عمر بن الخطاب :
يغزو القدس أم يفتحها سلما ؟

فهل كان عجيبا ، أنه لم تمض على هذه الحملة سوى سنتين . . سنتين اثنتين . . حتى فتح المسلمون القدس . . ؟ بل قل إنهم لم يفتحوا القدس ، وإنما تلقوا القدس الشريف هدية مباركة . . تلقوها فى أمن وسلام ، وفى تحية وترحيب . . عندما أقبل عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

* * *

وجاء الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، وجاء عهد الفتوح الإسلامية ، وسارت جيوش إسلامية تفتح فارس والعراق والشام ، ودارت معارك كبرى بين جيوش الفرس والرومان وبين جند الإسلام ، وكانوا جندا مظفرين غالبين بقوة الإيمان وبروح من الله .

وقررت انتصاراتهم المتتالية فى تلك المعارك مصير العالم المأهول حينذاك ، ورسم مستقبل كثير من الأمم والشعوب .

حسمت معركة اليرموك مصير الشام .

وحسمت معركة القادسية مصير العراق .

وقررت معركة المدائن مصير فارس وكسرى الفرس .

ودارت معركة أجنادين فى مشارف فلسطين ، وسقط فيها الكثير من جند الرومان ومن جند المسلمين ، فرأى القائد الرومانى ، أرطبون ، أن ينسحب بجيشه فى اتجاه القدس . . مقدرًا أن المعركة الكبرى والحاسمة ستكون عند مشارف القدس ، أو ربما فى داخل المدينة نفسها . . فالقدس هدف المسلمين ، ولن ينصرفوا عنه أبدا ، مهما كسبوا من معارك ، ومهما فتحوا من أرض ، ومهما فقدوا من رجال . . ولكن يشاء الله أن يدخل المسلمون القدس دون حرب وقتال . . دون أن تراق قطرة دم أو يشهر سلاح . . وكانت مشيئة الله ، فدخل المسلمون المدينة المقدسة فى سلام ، يستقبلهم أهلها مرحبين .

كان المسلمون قد سيروا جيشًا إلى الشام ، تحت إمرة عمرو بن العاص . وكان عمرو واحدًا من العبقريين الذين ظهروا فى تلك المرحلة من التاريخ . والعبقرية هى تعدد المواهب ، والنبوغ فيها جميعا . . فكان قائدًا عسكريا قديرًا ماهرًا . . وكان سياسيًّا ، غطت شهرته بالدهاء والبراعة مقدرته العسكرية . . وكذلك ، غطت مقدرته الإدارية التى ظهرت وتجلت عندما صار فيما بعد واليا على مصر ، فكان عهده فيها صفحة بيضاء ناصعة من الكفاءة والعدل والتسامح .

إن عمرو بن العاص وأمثاله . . خالد بن الوليد ، وأبا عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص ، ومن بعدهم عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ، أو محمود الغزنوى فى الهند ، ثم صلاح الدين فى مصر والشام . . أولئك الأبطال لم يكونوا ـ كما ساغ وحلا لأحد الكتاب المصريين أن يصفهم فى مقال صحفى ـ «جنرالات الدولة الإسلامية» . . بل كانوا رجالا عظماء ، بكل ما تتسع له كلمة العظمة من المعانى

والآفاق . . سواء فى قدرتهم العسكرية أو فى نفوسهم المشرقة بالإيمان ، أو فى أخلاقهم الرفيعة الشريفة ، أو أعمالهم التى فاضت خيرًا وبرًا وعدلاً وتسامحًا .

ووصف هؤلاء الأفذاذ العظماء بأنهم « جنرالات » الدولة الإسلامية ، قد قصد به الإقلال والانتقاص من قدرهم العظيم . . لأن هذا الوصف، صدر عن كاتب واسع الثقافة جدًّا ، فهو يعرف أن نابليون مثلا عندما كان قائدًا لحملة فرنسية ، على إيطاليا وعلى مصر ، كان اسمه « الجنرالات بونابرت » . . أما بعد هذا ، وعندما تبدت وتجلت مواهبه السياسية والإدارية ، وصار « رجل دولة » بمعنى الكلمة ، فقد سقط عنه وصف « الجنرال » ، وعرفه العالم وعرفه التاريخ باسم نابليون. . وهناك أمثلة كثيرة ، منها واشنطن قائد أمريكا فى حرب الاستقلال ، وأيزنهاور بطل الحرب العالمية الثانية ، فقد اكتسبوا ألقابا وأوصافًا أخرى غير رتبة « الجنرال » . . وكذلك ، كان أولئك الأفذاذ المسلمين . . قادة فى أمتهم ، ورجال دولة بمعنى الكلمة ، وليسوا مجرد «جنرالات » فى معارك حربية !

ولننظر ، لنرى مثلا على هذا ، ما فعله عمرو بن العاص ، القائد العسكرى والسياسى القدير ، فى فتح القدس الشريف . عندما جمع الرومان قواهم العسكرية ، وركزوها فى القدس وما حولها ، رأت القيادة الإسلامية أن تقطع على الرومان خطوط الإمدادات العسكرية ، التى تأتيهم من روما ومن أوربا عبر البحر فى سفن تنزل فى ميناء قيسارية فى الشمال ، وميناء غزة فى الجنوب .

أرسلت القيادة الإسلامية ، وكان يتولاها أبو عبيدة بن الجراح ، فرقة من الجيش إلى ميناء قيسارية ، وهو ميناء حصين الموقع تحتله قوة كبيرة

من الرومان ، فحاصرت الفرقة الإسلامية المدينة والميناء طويلاً . . حاول الرومان فك الحصار مرارًا ، فرد هم المسلمون على أعقابهم إلى داخل المدينة . . حتى إذا طال الحصار ، واشتد الضيق بالمحاصرين ، خرج الجند الرومان جميعًا دفعة واحدة . . بخيلهم وأسلحتهم . . فدارت معركة هائلة سقط فيها كثير من المسلمين . . أما من سقطوا من الرومان، فقد قدر عددهم بثمانين ألفا ، وزاد حجم خسائرهم بمن وقع من جند الرومان أسيرًا ، أوهام على وجهه هاربا . . فقدرت خسائرهم بمائة ألف . . وإنه لعدد ضخم جدًا ، بالقياس إلى حجم الجيوش وعدد البشر فى ذلك الحين . . وهذا العدد الكبير من القتلى والأسرى ، يدل على ضخامة فرق الجيش الرومانى التى انتشرت فى أرجاء فلسطين ، وكونت حاميات قوية فى نابلس واللد ويافا وغزة . .

* * *

وغزة هذه ، كان المسلمون قد احتلوها أيام أبى بكر الصديق . . وهذا الاحتلال لمنطقة فى الطرف الجنوبى لفلسطين ، حتى فى الوقت الذى لم تبدأ فيه الفتوحات الإسلامية الكبرى ، دليل على أن المسلمين منذ البداية كانوا يتطلعون إلى فلسطين ، وبالذات إلى القدس الشريف . . فعادوا ، فى عهد عمر ، فقهروا الحامية الرومانية فى غزة واحتلوها ، وبهذا أتموا حصار فلسطين من البحر شمالا فى قيسارية وجنوبا فى غزة . .

ورغم هذا الحصار ، فإن عمرو بن العاص لا يستطيع أن يتقدم ، لمواجهة جيش الرومان الكبير ، بمن تبقى معه من جند قليل . . بعد أن استنفدت المعارك العديدة ، والرحلة الطويلة عبر الصحارى ، معظم جنوده . . فرأى أن يرسل إلى عمر بن الخطاب فى المدينة يطلب إليه مددًا

من الجند . . وكانت رسالته إلى أمير المؤمنين بضع كلمات، قال فيها كل شىء . . قال إن الحرب قاسية، والغنيمة كبيرة، والرأى لك . . وكان نص الرسالة : إنى أعالج حربا كئودًا صدوما، وبلادًا ادخرت لك . . فرأيك .

هذا هو موقف عمرو بن العاص ، القائد العسكرى ، فى ساحة القتال . . ولكن ماذا عن موقف عمرو بن العاص السياسى الداهية ، الذى يدرك بموهبته الفطرية الفذة ، ما يقولونه فى العصر الحديث من أن السياسة هى امتداد للحرب ، وأن الحرب هى امتداد للسياسة ؟

إن الموهبة السياسية ، فى هذا الرجل متعدد المواهب ، تقول له إن فى وسع المسلمين أن يتفادوا الاشتباك مع الرومان فى معركة حربية هائلة عند القدس الشريف ، إذا سعى المسلمون إلى التعاون مع أهل فلسطين ، ضد حكامهم الرومان . فالمعارك التى نشبت حتى الآن ، لم تكن بين المسلمين وأهل فلسطين المسيحيين ، وإنما كانت بين المسلمين والرومان. أما أهل فلسطين ، فقد وقفوا موقف المشاهد المتفرج على ما يقع بين الحكام الرومان والمسلمين الفاتحين . . دون أن تحركهم حماسة للروم ، وكانوا فى ذلك الوقت يدينون بالمسيحية ، ودون أن يثيرهم غضب على المسلمين ، الذين جاءوا إلى بلادهم حاملين دعوة دين آخر ، هو دين الإسلام .

كان عمرو بن العاص يدرك هذا . . ويشعر ويفكر فى أن يكسب أهل فلسطين إلى جانب المسلمين ضد حكامهم الرومان . . وعندئذ يستطيع أن يتفادى مواجهة الرومان فى معركة حربية هائلة ، حشد لها الرومان قواهم العسكرية . فمهما تكن نتيجة المعركة ، فلابد أن يفقد المسلمون كثيرًا من جندهم ، ولابد أن يخوضوا فى الدماء ، وهم فى طريقهم إلى المدينة المقدسة .

فكر الرجل السياسى ، عمرو بن العاص ، فى أن يتفادى القتال مع أهل فلسطين ، لأن هناك عاملين يحملان على الاعتقاد بأن أهل البلاد لا يريدون حربا مع هؤلاء العرب المسلمين :

العامل الأول : أن أهل فلسطين ينتمون إلى أصل عربى . . فهم من نسل كنعان ، وهو فرع من فروع العرب . . وقد نزح أجدادهم ، منذ القدم ، من سواحل الخليج المجدبة إلى الأرض الخصيبة فى فلسطين . . وتعلموا الزراعة ، واشتغلوا بها . . وكان هذا من قبل أن يجىء بنو إسرائيل إلى فلسطين بقرون وقرون طويلة . . ولهذا فإن أهل فلسطين وقت الفتح العربى ، ومن قبله بعصور مديدة ، كانوا عربا ، ولم يكونوا يهودا ، ولكن الدعاية الصهيونية فى زماننا هذا ، تقول إن العرب جاءوا فانتزعوا فلسطين من اليهود ! . . فيصدقهم العالم ، بل ونصدقهم نحن أنفسنا . . لأن طريق الدعاية إلى العقول أقصر وأسهل ، من طريق معرفة التاريخ على حقيقته .

* * *

وقد كان أهل فلسطين ، وقت الفتح العربى ، يتكلمون اللغة العربية . . لا اللغة العبرية ولا اللغة الرومانية . . ولاشك فى أن رابطة اللغة بينهم وبين المسلمين ، جعلتهم يشعرون بأن هؤلاء الوافدين عليهم من الجزيرة العربية ، ليسوا غزاة غرباء ، مثلما كانوا يشعرون تجاه حكامهم الرومان . وقد أكد هذه الحقيقة التاريخية ، العالم المؤرخ الأستاذ فيليب حتى فى كتابه « تاريخ العرب » ، فقال : « كان السوريون ، والمصريون ، يعتبرون العرب الفاتحين قوما من بنى جنسهم ، يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين الذين كانوا من الأجانب الغاصبين . . فالفتوحات الإسلامية ، من هذه الوجهة ، هى عند

التحقيق انقلاب اجتماعى سياسى استرد به الشرق الأدنى مجده الحساس الغابر » .

هذا عامل . . وأما العامل الآخر ، فهو أن أهل فلسطين كانوا ساخطين أشد السخط ، ناقمين أشد النقمة ، على الرومان وحكم الرومان . . فقد ذاقوا منهم كل صنوف الاضطهاد والتعذيب ، عندما كان الرومان وثنيين ، بينما اعتنق أهل فلسطين الديانة المسيحية . . فلما اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية ، وتحول الرومان إلى المسيحية ، لم يخف عن الفلسطينيين المسيحيين بطش الرومان وقسوتهم وجبروتهم .

* * *

ظل الرومان المسيحيون يعاملون الفلسطينيين المسيحيين معاملة الحاكم المتجبر للمحكوم المقهور . . بدعوى أن الرومان يقولون إن مسيحية أهل فلسطين تختلف عن مسيحية روما فى بعض التفاصيل . . بل لم يكن الرومان يسمحون للفلسطينيين ، ولا للمصريين المسيحيين ، بأن يبنوا كنيسة يصلون فيها ! . .

والتاريخ المصرى يثبت أمرا له أبلغ الدلالة وأعظمها ، وهو أن أول كنيسة قبطية لم تبن فى عهد الرومان المسيحيين ، وإنما بنيت فى عهد الحكم الإسلامى . . وعلى وجه التحديد ، فإن أول كنيسة قبطية فى مصر، هى كنيسة « أبى سرجة » ، وقد بنيت بعد الفتح الإسلامى بثلاث وأربعين سنة . . أى بعد أن استقر المسلمون فى حكم مصر ، ولم يكونوا فى حاجة إلى ممالأة الأقباط فى مصر ، وإنما سمحوا لهم ببناء الكنيسة التى انتخب فيها أول بطريرك لمصر ، وهو بطريرك الإسكندرية . . وسمحوا ببناء عدد من الكنائس . . تطبيقًا لمبادئ الإسلام فى احترام حقوق الذميين فى إقامة كنائسهم ومعابدهم وصلواتهم .

وكذلك كان الأمر فى فلسطين . . فبينما كان الحكام الرومان يبنون الكنائس لأنفسهم ولجنودهم داخل الثكنات والحصون ، فإنهم كانوا لا يسمحون للفلسطينيين المسيحيين أن يقيموا كنيسة إنفسهم . . ولا كانوا يسمحون لهم بممارسة الشعائر المسيحية علنا . . وفضلا عن هذا ، فقد كانوا ينزلون بهم كل ضروب الاضطهاد والإذلال . . ما يصل إلى حدود التنكيل والتعذيب . . والقتل والفتك أحيانا !

* * *

أليس عامل الأصل العربى من جانب . . وعامل النقمة والكراهية للرومان من جانب . . كفيلين بإقامة صلة من التفاهم بين المسلمين القادمين وبين أهل فلسطين ؟ صلة قوية قد تغنى المسلمين عن الحرب وقد تكفيهم شر القتال مع الرومان ؟ . . وماذا يستطيع جيش الرومان أن يفعل ، مهما يكن عدد جنوده ومهما تكن قوة سلاحه ، إذا انضم أهل فلسطين جميعا إلى المسلمين القادمين ، وفتحوا لهم مدنهم وقراهم وبيوتهم ، متعاونين مرحبين ؟ . .

* * *

وفكر عمرو بن العاص وفكر . . وهداه تفكيره السياسى ، إلى أن الفتح العربى للقدس الشريف ، يمكن أن يتم فى سلام . . بل فى مودة ومحبة . . على شريطة أن يتم هذا الفتح العظيم ، فى وقار وجلال ومهابة تليق بمكانة القدس الشريف .

قد يكبر على المسيحيين فى القدس ، أن يسلموا المدينة للقائد المسلم الذى يحاصر المدينة بجنوده . . وقد يفضلون أن يقاتلوا ويقتلوا دفاعًا عن المدينة التى عاش فيها المسيح وبشر برسالته ، على تسليمها لقائد المسلمين تسليما « عسكريا » مهينا ! . . أما إذا جاء عمر بن الخطاب

نفسه . . أما إذا جاء أمير المؤمنين وعظيم المسلمين ، قاطعًا الرحلة الطويلة فى فجاج الصحراء من المدينة إلى القدس . . ثم وقف خارج القدس ، وتفاوض بنفسه مع قادة القوم وأصحاب الأمر فيهم . . ووسط مراسم ومظاهر تحفظ لأهل المدينة كرامتهم ، ولا تجعل الأمر يبدو فى صورة تفاوض وتفاهم . . فالأرجح عندئذ أن يتم فتح القدس الشريف فى سلام وفى وقار . .

* * *

وهناك فى مدينة الرسول ، كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يفكر فى الأمر نفسه ، ويستشير من حوله من أهل الرأى والمشورة . . وتشاور مع رجلين من الصفوة الراشدين هما : عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب . . وكان موضوع التفكير والتشاور : هل يرسل مددا من الجند إلى عمرو بن العاص ليخوض المعركة الحاسمة مع الرومان المعسكرين فى مدينة القدس ؟ أم هل يذهب خليفة المسلمين إليهم ، فلعلهم يتفاوضون معه فيدخل بيت المقدس فى سلام ؟

فأما عثمان بن عفان ، فلم يوافق على فكرة ذهاب أمير المؤمنين إليهم، بل نصح بألا يعيرهم اهتمامًا كبيرًا . . حتى يضيقوا بالحصار المفروض عليهم فيستسلموا للمسلمين .

وأما على بن أبى طالب ، فقال لقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام . . وإذا قدمت عليهم ، كان لك وللمسلمين الأمن والعافية والصلاح والفتح . .

أما إظهار عدم الاهتمام بهم ، فقد تكون له فى نظر على بن أبى طالب عاقبة وخيمة . فقال : لست آمن أن ييأسوا منك ومن الصلح ، ويمسكوا حصونهم ، ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم . . لاسيما وبيت المقدس معظم عندهم وإليه يحجون .

٥ ـ أسقف القدس ..
يستقبل أمير المؤمنين مرحبا

وفكر عمر فى الأمر طويلاً ، فهو المسئول الأول فى الدولة عن أمته وعن جنوده . . ثم اتخذ قراره . . أو على الأصح اتخذ قرارين فى وقت واحد : قرارًا عسكريًا بأن يرسل مددًا كبيرًا إلى الجيش الواقف على أبواب القدس ، وقرارًا سياسيًا بأن يذهب بنفسه إلى القدس ، ويتفاوض آملا فى أن يتم الصلح .

وسرعان ما وصلت الأخبار إلى القائد الرومانى أرطبون بأن جيشًا كبيرًا من المسلمين يتحرك صوب القدس . . وكانت حاميتها قد أرهقها الحصار الطويل ، وكانت معنوياته تهبط طوال هذا الحصار . . وسرعان ما قرر أن يفر من القدس ، ومن فلسطين . . ولم يستطع أن يفر عائدًا إلى روما عن طريق البحر ، فقد كان حصار المسلمين لمنافذ البحر محكما . . ففر عن طريق الصحراء إلى مصر ، دون أن يخطر بباله ، أنه لن يمضى وقت طويل حتى يفتح المسلمون مصر أيضًا .

وصار زعيم القدس ، بعد أن فر القائد الرومانى ، هو زعيم المسيحيين : البطريرك صفرنيوس . . وأبدى البطريرك ترحيبه بعقد الصلح . . ولكنه اشترط أن يأتى زعيم المسلمين ، عمر بن الخطاب ، ليتفاوض فى الصلح ويوقع الاتفاق بنفسه .

وكان عمر حينذاك فى طريقه إلى القدس . . وفى نيته وفى رجائه أن يتم فتح القدس صلحا وسلما . . وقد تحقق رجاء عمر . . فقد أرسل البطريرك صفرنيوس إلى قائد الجيوش الإسلامية أبى عبيدة بن الجراح ، يعرض الصلح . فلنر كيف كانت المفاوضة ، وكيف كان الصلح والسلام .

* * *

رحل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من المدينة إلى القدس ، ليعقد الصلح مع أهلها ، فيدخل المسلمون مدينة المسجد الأقصى فى سلام .

وفى الوقت نفسه ، تحرك مدد من الجند من أنحاء الشام لينضموا إلى جيش عمرو بن العاص الذى يحاصر المدينة منذ شهور . . ولا يريد أن يقتحمها حتى لا تسفك الدماء فى المدينة المقدسة .

خطان متوازيان . . تحرك فيهما المسلمون فى آن واحد . . خط يريد صلحا وسلاما . . وخط لا يحجم عن القتال ، إذا لم يكن هناك بد من القتال . .

وهكذا ، كان عمر بن الخطاب ، وكان على بن أبى طالب ، وكان عمرو بن العاص ، وكان أبو عبيدة بن الجراح . . وكل أولئك الصفوة الراشدة من المسلمين الأوائل . . يدركون ما لم يدركه بعض الحكام فى أيامنا هذه . . من أن الصلح والسلام لا يأتيان ولا يتحققان إلا إذا كانت هناك قوة وإرادة وعزيمة تجعل الطرف الآخر أمام خيارين : السلام أو القتال .

وقد صارت كفة الصلح والسلام أرجح من كفة الحرب والقتال ، بعد أن خرج القائد الرومانى من القدس ، وفر إلى الصحراء ، ذاهبًا إلى مصر

وهى آخر المستعمرات الرومانية فى الشرق . وهذا القائد الرومانى الهارب، واسمه أرطبون ، هو الذى قاد فيها بعد جيش الرومان لمواجهة جيش المسلمين بقيادة عمرو بن العاص ، عند فتح مصر . . فكانت هزيمته عند بلبيس هى خاتمة حياته .

وصار الأمر ، فى مدينة القدس وما حولها ، بأيدى أهلها المسيحيين وزعيمهم الأسقف صفرنيوس ، وكان ناسكا متدينا . . وكان عالما متبحرا . . وقد عرف كثيرًا عن الإسلام والمسلمين ، فكان مطمئنا إلى أنه سيعقد معاهدة الصلح مع قوم إذا عاهدوا أوفوا بعهدهم .

ووصل عمر بن الخطاب بعد رحلة طويلة فى شعاب الصحراء . . وفى بعض الروايات ، أنه ذهب أولا إلى دمشق التى كانت قد فتحت للمسلمين ، فأعطوا أهلها عهد أمان . . اطمأن به الناس على أنفسهم وأملاكهم وكنائسهم وحرياتهم مقابل جزية يدفعونها ، هى أقل من الزكاة المفروضة على المسلمين . .

* * *

وكانت دمشق هى مقر القائد العام للجيوش الإسلامية ، فقد كانت هناك أربعة جيوش ، انتقلت من الجزيرة العربية ، وتحركت فى أرجاء الشام والعراق وفارس ، وكان لكل جيش قائده أو أميره .

وكانت للجيوش الأربعة قيادة عامة يتولاها أبو عبيدة بن الجراح ، الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه أمين الأمة .

وتفقد عمر بن الخطاب الأحوال فى دمشق . . وتمهل هناك فترة من الوقت ، دون أن يسرع إلى مدينة القدس . . لماذا ؟ لعله أراد أن يطمئن إلى أن المدد العسكرى الذى أمر بإرساله لينضم إلى جيش عمرو بن

العاص ، قد اقترب من مدينة القدس ، وعندئذ يستطيع المسلمون أن يتفاوضوا مع زعماء المدينة من مركز ، يضعونهم فيه بين خيارين : خيار الصلح والسلام أولا ، وخيار الحرب إن لم يكن هناك سبيل إلى الصلح والسلام .

إن هذا هو الطريق السوى ، الذى يسلكه العقلاء الراشدون فى سعيهم إلى السلام . . فالسلام لم يكن فى يوم من الأيام ، قديما أو حديثًا ، شرقا أو غربا ، منحة يعطيها العدو لعدوه ، عن رضا وسماحة نفس . . ولا هدية يقدمها الخصم لخصمه ، عن محبة ومودة . . ولا صدقة تستجديها أمة مسكينة هان أمرها ، من أمة قاهرة متجبرة ، فتخرج الصدقة من باب الجود والإحسان . . كلا . . وإنما يتحقق السلام ، إذا اقتنع الطرفان بأنه لا بديل للسلام إلا الحرب . . وأن الحرب قتال بين أنداد وأكفاء ، فانتصار أى من الفريقين وارد ومحتمل . . وكذلك انهزامه وارد وغير مستبعد . . وعندئذ فقط ينفتح الطريق إلى السلام .

وهذا ما حدث فى فتح المسلمين للقدس . .

فإن معركة « أجنادين » ، التى سبقت الفتح ، أظهرت قوة المسلمين أمام الرومان . . والحصار الذى فرض المسلمون حول المدينة ، قد أفزع الرومان ، فلاذ قائدهم بالفرار . . والأخبار تأتى إلى أهل المدينة ، تنبئهم بانتصارات إسلامية باهرة ، على جيوش الفرس وجيوش الرومان، فى معارك جرت فى فارس والعراق والشام . . وكل هذا من أشنه أن يجعل أهل القدس راغبين فى تفادى الحرب من المسلمين ، وفى أن يعقدوا معهم صلحا . . على شرط أن يكون صلحا مشرفا من ناحية المظهر ، وعادلا كريما فى شروطه .

فأما من ناحية المظهر فلابد أن يأتى كبير المسلمين وأميرهم بنفسه .

وجاء عمر بن الخطاب ، ومعه نفر قليل ، وقفوا خارج المدينة ينتظرون ماذا يفعل أسقف المدينة وزعماؤه . . وحانت صلاة الفجر ، فصلى عمر بالمسلمين ، ثم خطبهم . . وحانت صلاة الظهر فطلب من بلال بن رباح أن يؤذن للصلاة . . وكان بلال قد امتنع عن الأذان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وارتحل عن المدينة ليبتعد بنفسه عما جرى فيها من خلافات حول اختيار خليفة الرسول . . وامتثل بلال لطلب أمير المؤمنين ، وتقديرًا لمكانة القدس الشريف . . فلما نادى الله أكبر ، اقشعرت الأبدان وخشعت الجوارح . . فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ، بكى الناس بكاء مسموعًا . . وكان عمر بن الخطاب أكثرهم بكاء . . حتى كاد بلال أن يقطع الأذان .

وأمضى عمر أمير المؤمنين ومن معه يومين ، فى خيامهم خارج المدينة . . حتى استوثق أسقف المدينة من أن الذى جاء هو كبير المسلمين نفسه ، عمر بن الخطاب . . وعندئذ ، خرج من المدينة المحاصرة عدد من الفرسان يركضون على الخيل وفى أيديهم السيوف . . فلما أقبلوا على مخيم عمر ، فزع بعض الجنود فقاموا وشهروا السلاح . . فنهض عمر باسما ، وهدأ رجاله ، فهؤلاء الفرسان هم رسل أسقف بيت المقدس جاءوا يعقدون الصلح مع خليفة المسلمين .

* * *

وجرت مفاوضات بين مبعوثى الأسقف وبين المسلمين . . أو قل استكملت المفاوضات بين الجانبين ، فقد كانت هناك مفاوضات واتصالات منذ وصل المسلمون إلى مشارف القدس منذ بضعة شهور . . وكان عمرو بن العاص يتفاوض مع الرومان من ناحية ، ومع المسيحيين

من ناحية أخرى . وكان يطيل أمد المفاوضات ، حتى يستقر المسلمون فى المدينة على رأى وعلى قرار ، هل يقتحمون أسوار المدينة المقدسة مجاهدين مقاتلين ؟ أم هل يستقبلون سفراءها مرحبين ويدخلون معهم فى سلام ؟

وعرض عمر بن الخطاب على سفراء القدس معاهدة ، تشبه المعاهدة التى عقدها المسلمون من قبل عند فتح دمشق . . بل إنها كانت أسمى من معاهدة دمشق . . وهى المعاهدة التى عرفت باسم «العهد العمرى» . هذا العهد ، ينبغى ألا نمل من تكراره فيما نكتب وفيما نقول . . وخاصة عندما نقرأ ونسمع عما يفعله اليهود اليوم ، وعما فعله الصليبيون بالأمس ، فى المدينة المقدسة . .

هذا هو نص « العهد العمرى » :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل « إيلياء » (اسم القدس حينذاك ، وصفتها المدينة المرتفعة ، وأظنها تحريفا لكلمة علياء) . من الأمان . . أعطاهم الله أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانها ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتهم . . إنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها . . ولا من صليبهم . . ولا من شىء من أموالهم » .

« ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم » .

« ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهود » .

وهذا شرط اشترطه المسيحيون فى القدس .

« وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية ، كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . . فمن خرج منهم ، فهو آمن على

نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية » .

« ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله من الروم ويخلى بينهم « كنائسهم » وصلبهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وعلى صلبهم حتى يبلغوا مأمنهم » .

« ومن كان فيها من أهل الأرض « الزراع » ، فمن شاء منهم قعد وعليه ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم . . ومن رجع إلى أهله (أى بعد خروجه) ، فإنه لا يؤخذ منهم شىء حتى يحصدوا حصادهم » .

« وعلى ما فى هذا الكتاب من عهد الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين . . إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية » .

« كتب وحضر سنة خمس عشرة (تقابل سنة ٦٣٦ م) » .

« شهد على ذلك . . » (أسماء الشهود) .

« وشهد على تلك الوثيقة الإنسانية العظيمة ، التى وقعها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، أربعة من أعظم عظماء المسلمين . . وكلهم من الصحابة الذين حملوا راية الإسلام . . أربعة من العظماء الأفذاذ الذين أقاموا دولة الإسلام . . أولئك القادة الراشدون المؤزرون : خالد بن الوليد ، عبد الرحمن بن عوف ، عمرو بن العاص ، معاوية بن أبى سفيان . . رضى الله عنهم جميعا قدر ما نصروا الإسلام ورفعوا رايته فى أرجاء الأرض .

هل يعرف تاريخ العالم . . تاريخ الحرب وتاريخ السلام . . قديما أو حديثا . . فى مشارق الأرض ومغاربها . . جيشًا يضرب الحصار ، ويأتيه

المدد من الجند والسلاح . . يعرض على أهل المدينة المحاصرة ما تضمن هذا العهد العمرى من مبادئ إنسانية بلغت ما بلغت من أقصى درجات العدل والسمو والتسامح ؟ . . وكيف اهتدى أولئك العرب ، وبعضهم جاء من البادية القاحلة ، وبعضهم نشأ فى بيئة قريبة من البدوية ، إلى هذه المبادئ الإنسانية ؟ التى نعرف جيدا أن الدول فى عصرنا الحديث تضعها فى القوانين الدولية والمعاهدات ، فإذا قامت الحرب ونشبت المعارك ،نسيت كل هذه المبادئ ، وراحت الجيوش بكل أسلحتها الرهيبة يفتك بعضها ببعض . . ويفتك أيضًا بالعُزَّل من الناس ، فى مدنهم وقراهم وداخل بيوتهم .

إنهم أولئك الذين خرجوا من بادية الصحراء ، ومن جاهلية المجتمع ، فاهتدوا إلى هذه المبادئ الإنسانية العظيمة ، لأن هديهم كان هدى الإسلام إيمانًا ، وشريعة . .

قد يقول قائل : إن المسلمين لم يتركوا أهل القدس أحرارًا فى دينهم حرية كاملة ، وإنما فرضوا عليهم « عقوبة » التمسك بدينهم المسيحى ، وهى « الجزية » يدفعونها لبيت المال الإسلامى .

والرد على هذا بسيط جدا ، فالإسلام فرض على المسلمين . . «الزكاة» وفرض على الذميين « الجزية » . . وكانت الجزية على الفقراء منهم أقل من الزكاة المفروضة على المسلمين . . وفضلا عن هذا ، فقد أعفى المسلمون الرعايا الذميين من الخدمة العسكرية ، على أن يتولى المسلمون حمايتهم والدفاع عنهم ضد المعتدين والغزاة ، كما يتولون حماية أنفسهم والدفاع عنها .

ولننظر كيف تلقى أهل القدس ذلك « العهد العمرى » العظيم . . ابتهج أسقف القدس البطريرك صفرنيوس ، بالوثيقة التى جاء بها رجاله

تحمل توقيع خليفة المسلمين ، عمر بن الخطاب ، ويشهد عليها أربعة من أعلام المسلمين . . وكان المسيحيون فى القدس أكثر سعادة بالوثيقة التى جاءت تحمل إليهم بشرى الأمن والسلام ، وتحمل أسمى مبادئ التسامح . . وكلما استمعوا إلى الوعاظ فى الكنائس يقرءون الوثيقة ، تبينوا أنها ليست مجرد اتفاق مؤقت ، يضع هدنة بين جيشين ، أو يقيم صلحا بين خصمين ، وإنما هو عهد أمان دائم ثابت ، أعطاه عمر بن الخطاب نيابة عن المسلمين فى عصره ، وفيما يليه من عصور . . ووضع به الدستور الذى يحكم مبادئ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين أينما كانوا . . وقد بلغت شروط هذا العهد ، من العدل ومن التسامح ، ما جعل بعض الناس فى مدينة القدس يتشككون فيما وراءها من نوايا . . فقالوا : فلننتظر حتى يوضع عهد الأمان هذا موضع الاختبار ، لنرى كيف يكون التطبيق والتنفيذ ، فهذا أهم من الوثيقة وما فيها من مبادئ ونصوص .

* * *

فلنمض إذن قليلا ، لنرى ماذا فعل أمير المؤمنين عندما دخل القدس . . دخل عمر بن الخطاب بيت المقدس ماشيا على قدميه ، مرتديا ثوبا به رقع جديدة ! . . جاءوا إليه بفرس عليها سرج مطعم بالجلاجل والأجراس ، وقد دربوها على أن تهتز حين تتمشى ذات اليمين وذات اليسار ، فيهتز ويترنح راكبها زهوا وخيلاء . . ركب عمر الفرس ، وسارت به قليلاً ، والجموع من حوله تضطرب وتهتاج وهى تسمع صليل الأجراس . . فقفز من فوقها وضربها بردائه وهو يقول :

قبح الله من علمك هذا الخيلاء . . ومضى فى الطريق سائرًا على قدميه ! . .

وجاءوا له برداء أبيض صنع فى مصر من الكتان ، كان ثمنه خمسة عشر درهما . . ولبسه قليلاً ، ثم نزعه عن جسمه ، وارتدى ثوبه المرقع ، وتقدم إلى حيث وقف أسقف المدينة ومعه وفد من الأعيان والكبراء ينتظرون مقدمه . .

وقد تتساءل : لماذا رفض عمر أن يلبس ثوبا جديدًا ناصعا يليق بهذه المناسبة الكبرى ؟ . . وقد يرد على هذا بأن المناسبة الكبرى ، وهذا الفتح المبين ، يستوجبان شيئًا أهم من تغيير الثوب وارتداء لباس لم يألفه من قبل . . إنهما يستوجبان حمدًا وشكرًا لله تعالى على هذا الفتح العظيم . . ودعاء وتضرعا إلى الله أن يكون المسلمون فى يومهم ذلك ، وفيما بعده من أيام وسنين ، أهلا لهذا البلد المقدس الذى فتحه الله لهم فى أمن وسلام .

وماذا يضيف الثوب أو ينتقص من الرجل الفذ العظيم ؟ . . لقد شاهدنا بأعيننا ، فى هذا العصر الحديث ، مثلا على هذا . . شاهدنا صورة المهاتما غاندى ، وهو ذاهب إلى قصر باكنجهام فى لندن ، ليقابل «صاحب الجلالة ملك بريطانيا وماوراء البحار » ، ويذهب إلى مقر الوزارة البريطانية ليفاوض اللوردات وأصحاب الألقاب الرفيعة ، ويطلب استقلال بلاده . . رأينا صوره فى هذا اللباس البسيط ، الذى يستر بعض جسمه النحيل ، وفى قدميه نعل مما يلبس فقراء الهنود . . فيهتز العالم دهشة وإعجابا . . ويهتز أيضًا بعض الإنجليز غضبًا وغيظًا . . فيقول ونستون تشرشل فى كتاب مطبوع : كيف تقبل التفاوض مع هؤلاء « القرود » ؟ . . كيف تترك إمبراطوريتنا البريطانية العظيمة لهذه «الخلائق الممسوخة » ؟ . . ولكن تشرشل عاش حتى رأى بعينيه أن من تصورهم « قرودًا » وخلائق ممسوخة . . قد صفوا إمبراطوريته العظيمة ، وأقاموا مكانها دولا مستقلة وشعوبا متحررة . .

نعود إلى ما كنا فيه . . فنقول إن أعيان مدينة القدس وكبراءها وقفوا وراء الأسقف صفرنيوس ، عند مشارف المدينة ، وأقبل عليهم عمر بن الخطاب فحياهم وحيوه ، والتفوا حوله مرحبين مبتهجين ، وجلس معهم أمير المؤمنين يتحدث فى بساطة ووداعة ، فلا يصدقون عيونهم وآذانهم أن هذا هو الرجل الذى اجتاحت جيوشه فارس والعراق والشام، ودخل جنوده أبواب كسرى وقلاع هرقل . . هرقل الذى حكمهم رجاله حكم البطش والطغيان . . ولم يشفع لهم أنهم كانوا يدينون بالمسيحية التى اتخذها هرقل ، ومن قبله أبوه قسطنطين دينا رسميا للدولة الرومانية . . فكانوا يتخذون من الخلافات المذهبية بينهم وبين المسيحيين ، فى القدس أو فى مصر ، أسبابا للتنكيل والتعذيب . . وكانوا فى هذا من الطغاة القساة . . فكان من العقوبات التى ينزلها الرومان بالمسيحى الشرقى أن يجدع أنفه ، أو تصلم أذناه !

إلى هؤلاء المسيحيين فى القدس ، تحدث أمير المؤمنين حديثًا صادقًا أدخل على قلوبهم الأمن والأمان ، وأكد لهم ما تعهد به المسلمون فى وثيقة الصلح ، التى فتحت صفحة جديدة فى تاريخ المسيحيين ، لا فى القدس وحده ، بل فى العالم الإسلامى كله ، ومهدت بعد سنين قليلة لفتح مصر ، فكان موقف المقوقس عظيم القبط مثل موقف صفرنيوس أسقف القدس .

ومضى الحديث بين خليفة المسلمين وأسقف النصارى ، حتى أقبل المساء فانصرفوا على أن يلتقوا فى الصباح ليتجولوا معه فى أرجاء المدينة . . وخلا عمر بن الخطاب إلى نفسه فقام يصلى حمدًا وشكرًا لله على نعمته الكبرى . . فلم يسبقه على صلاة الإسلام فى القدس إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين كانت معجزة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، فصلى عند « صخرة يعقوب » ومنها عرج إلى السماء .

أين كانت تلك الصخرة يوم فتح الله بيت المقدس للمسلمين ؟

وماذا فعل عمر بن الخطاب والمسلمون من بعده فى الحفاظ على صخرة يعقوب ، التى يدعيها اليهود لأنفسهم ؟ كأنما كانوا هم أصحاب الحق فى « احتكار » يعقوب لأنفسهم ، وهم يعلمون أن المسلمين يؤمنون به مثلما يؤمنون بسائر الأنبياء والمرسلين ؟ وهل كان فى القدس عند الفتح الإسلامى أى معبد ، أو أى أثر من آثار المرحلة القصيرة التى عاش فيها اليهود فى القدس ؟ . . هل كان فيها شىء يمكن أن تقوم على أساسه تلك الدعاية المدوية ، التى نفذت فى عصرنا هذا إلى أسماع وأبصار عامة الناس ، فملأت أدمغتهم واستبدت بأعصابهم ؟ . فجعلتهم يتوهمون أن القدس كانت مدينة يهودية ، فانتزعها المسلمون ، ثم عاد اليهود فاستردوها . . بقوة السلاح . . منذ بضع سنين !

إن القدس لم تكن يهودية على أية صورة من الصور ، يوم دخلها المسلمون فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة . . أى فى سنة ٦٣٦ ميلادية .

الفصل الثانى

الغزو الصليبى

١ ـ لماذا بدأت الحروب الصليبية بعد انقضاء أكثر من ستة قرون على دخول المسلمين بيـت المقـدس ؟

زحفت جموع الصليبيين من أوروبا ، تثير حميتهم خطب البابا فى اجتماعات مسيحية حاشدة ، ويتقدمها رهبان ونساك يدفعهم حماس دينى متعصب .

عقد البابا أوربان الثانى مؤتمرًا فى كليومونت فى فرنسا ، وخطب فى الناس خطابًا أثار مشاعرهم ، متحدثًا عما يلقاه الحجاج المسيحيون من عسف أولئك المسلمين الذين يحكمون بيت المقدس وفيها قبر المسيح . . ويحكمون فلسطين وفيها بيت لحم حيث ولد المسيح . فسالت الدموع وتعالت الآهات ، وراح الناس يقسمون أن يهبوا لتحرير تلك الأماكن المقدسة من أولئك المسلمين .

وراح البابا يعد أولئك الذين نذروا أنفسهم لاسترداد القدس أسخى الوعود ، ووعد كل من يترك أهله وبلده ويمضى على وجهه قاصدًا القدس صكا من صكوك الغفران . . وكان المسيحى حينذاك يعتقد أنه إذا حصل من البابا على صك مختوم بخاتم الكنيسة ، غفرت ذنوبه وضمن جنة المقيم . .

وأصدر مؤتمر كليومونت سنة ١٠٩٥ قرارًا بإعلان الحرب الصليبية . . وتحركت الجموع الهائلة . . آلافا من الرجال والشبان ، ومن الشيوخ والصبيان ، وحتى من النساء ، ، وتقدمهم نفر من القسس والرهبان .

فهناك « بطرس الناسك » يسير حافى القدمين . . وقد كست وجهه لحية شائبة شعثاء ، وتسربل بملابس مهلهلة رثة ، حاملا الإنجيل ، رافعًا الصليب . . ووراءه حشود من الناس وقد حمل كل منهم ما تيسر له من سلاح ، سيفا أو خنجرًا أو درعا وسهامًا . . وساروا على أقدامهم وفوق دوابهم ، من فرنسا وألمانيا والنمسا ، وعبروا المجر وبلاد البلقان ، متجهين إلى القسطنطينية حيث تقوم الكنيسة المسيحية الأخرى ، كنيسة الرومان الشرقيين .

وهناك « والتر المفلس » ، زعيم الغوغاء المعدمين ، الذين كانوا يقاسون الفقر والجوع فى بلاد أوروبا ، فقد أجدبت الأرض وقلت الأرزاق بسبب الحروب التى لا تنقطع ولا تهدأ بين أمراء الإقطاع . . فسارت حشود من الدهماء الفقراء متطلعة إلى الشرق وما فيه من خيرات . . وقد أقنعهم زعيمهم والتر المفلس بأن لا خيار لهم إلا أن يموتوا جوعا فى أوروبا ، أو يموتوا شرفا فى سبيل الصليب . . أما إن انتصروا فسيكون لهم نعيم الدنيا ، وغفران الذنوب أيضًا . .

وسار هؤلاء الفقراء ، وهم يعيثون فى الأرض سلبا ونهبًا . . ولم يبالوا بأنهم يسيرون فى بلاد مسيحية . . فنهبوا القرى وما فيها من أقوات . . بل قتلوا فى طريقهم آلافا من المسيحيين . . مما يدل على أن الحرب الصليبية كانت وراءها دوافع مادية ، ظهرت من هؤلاء الجياع الذين دفعتهم بطونهم ، وظهرت على الأخص فى تجار الموانى الإيطالية الذين حملت سفنهم جموعًا أخرى من الصليبيين إلى سواحل الشام وفلسطين ،

لأن أولئك التجار أرادوا أن يفتحوا طرق التجارة وأسواقها فى بلاد الشرق التى كانت أغنى وأرقى من بلاد أوروبا .

دوافع مادية ودنيوية كانت من بين دوافع الصليبيين ، وإن كان شعارهم هو الصليب ، ودعواهم أنهم يرحلون ويحاربون بإرادة الله واسم المسيح . .

والتقت تلك الجموع عند أسوار القسطنطينية ، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية المسيحية . . وكانت تعيش حينذاك تحت تهديد الأتراك السلاجقة ، الذين هبطوا من أواسط آسيا ، واكتسحوا فارس والعراق والشام ، واعتنقوا الإسلام وتحمسوا لنشره بحد السيف ، وسيطر ملوكها العظام على العالم الإسلامى ، فاتحد تحت إمرتهم فترة دامت قرنين من الزمن . .

وكان الإمبراطور البيزنطى يمنى نفسه بأن يجد من هؤلاء المسيحيين القادمين من أوروبا عونا له فى محاربة الأتراك ، فإذا به يجد جماعات من الدهماء والغوغاء ، الذين لا يعرفون حمل السلاح ولا قدرة لهم على القتال . . فبعث إلى بابا روما رسائل يقول فيها ، إن مصير هؤلاء المسيحيين هو الهلاك حتما على أيدى المسلمين . . أما إن كنتم تريدون حقا الوصول إلى بيت المقدس ، فابعثوا جيوشا منظمة ، وفرسانا مدربين، يستطيعون أن يتصدوا للأتراك المحاربين الأشداء .

وعندئذ هب الكثيرون من أمراء أوروبا وفرسانها ، وكونوا فرقا محاربة مدربة على القتال ، ومزودة بأوفر السلاح . . وزحفوا بها عبر بلاد أوروبا قاصدين القسطنطينية ، ومنها إلى القدس .

وكان معظم هؤلاء الفرسان من فرنسا ، وكانت هذه هى أول حملة

صليبية ناجحة ، ولهذا كان المسلمون يظنون أن جميع الصليبيين مسيحيون . . ومن هنا أطلقوا عليهم اسم « الفرنجة » .

* * *

لماذا فكر البابا ، وفكر ملوك أوروبا وأمراؤها وفرسانها ، فى القيام بالحرب الصليبية بعد أن انقضى أكثر من ستة قرون على دخول المسلمين بيت المقدس ، وعلى فتح فلسطين والشام ؟

لماذا لم يفكر الأوروبيون المسيحيون فى استرداد بيت المقدس من أيدى المسلمين طوال تلك القرون الماضية ؟ . . ولماذا قاموا الآن يحملون السلاح ، ويقطعون الآفاق قاصدين بلاد المسلمين بعد أن استقر فيها الإسلام أجيالا تلو أجيال ، وبعد أن صارت القدس مدينة إسلامية خالصة ، وإن ظلت أبوابها مفتوحة تستقبل الحجاج من المسيحيين ؟

هل كانت الكنيسة المسيحية راضية بذلك الوضع طوال هذه القرون ، ثم استيقظت فجأة على صيحة من البابا أوربان الثانى فى سنة ١٠٩٥ ، فقرر المسيحيون الأوروبيون أن يزحفوا بجموعهم وأسلحتهم ليستردوا ما ضاع منهم منذ أمد بعيد ؟

لا . . إن المسيحيين لم يكونوا قد نسوا بيت المقدس منذ الفتح الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب ، وهم قد رحبوا بالفتح الإسلامى فى أول الأمر ليخلصهم من حكم الرومان وطغيانهم ومظالمهم ، ورأوا فى عمر بن الخطاب وفى « العهد العمرى » الذى أعطاه لهم صورة عظيمة من التسامح الدينى ومن العدالة والاستقامة . . وبقيت كنائسهم محفوظة مفتوحة لصلاتهم وحجهم .

ثم مضى الزمن قليلاً ، وراح المسيحيون يتطلعون إلى استرداد بيت

المقدس من المسلمين . . ولكن أنى لهم هذا ، وقد ظل المسلمون دهرًا طويلاً أقوياء أشداء ، لا تقدر عليهم ولا تطمع فيهم أى من القوى الأجنبية ؟ . . فإن قوة المسلمين ووحدتهم وتماسكهم تحت خلافة إسلامية مسيطرة ، مكن المسلمين من الاحتفاظ بكل أرض فتحوها فى صدر الإسلام ، بفلسطين وبالشام وبالعراق وبفارس وبمصر . . بل مكنهم أيضًا من الانتشار فيما وراء هذه البلاد من آفاق مترامية ، حاملين راية الإسلام ليرفعوها فوق بلاد أخرى من أقصى الغرب فى أسبانيا والبرتغال ، وفى أقصى الشرق فى الهند والسند وتخوم الصين ، وفى الشمال حيث كادوا يفتحون القسطنطينية ويقضون على ما تبقى من الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى عهد عمر بن عبد العزيز .

وظلت هذه الوحدة قائمة ، حتى بعد أن ضعفت الخلافة العباسية وزالت هيبتها . . فقد جاء الأتراك السلاجقة من أواسط آسيا ، واعتنقوا الإسلام ، وصاروا أكثر الناس حماسة لهذا الدين ، وأشدهم جهادًا فى سبيل إعادة وحدة المسلمين وتدعيمها . . وصارت الدولة الإسلامية ، فى عهد « ملكشاه » السلجوقى ، أكثر اتساعا وأعظم قوة ، مما كانت فى عهد الدولة العباسية . .

ثم دار التاريخ دورته ، وجاء عصر الضعف والتفكك والتخاذل ، وانقسم هذا العالم الإسلامى الموحد إلى دويلات وإمارات عديدة . . وكانت هناك سلطنة العراق ، وسلطنة الشام ، وسلطنة حلب ، وسلطنة أصفهان ، وسلطنة خراسان . . وأخذت هذه الدويلات يكيد بعضها لبعض ، وتنشب بينها معارك القتال . . وأخطر من هذا ظهور الدولة الفاطمية ، شيعية المذهب ، ممتلئة بالحركة والحيوية ، فلا تكتفى بأن تحكم مصر وما وراءها من بلاد المغرب الإسلامى ، ولكنها تتطلع أيضا

إلى الشرق الإسلامى ، تريد أن تفتحه وتبسط عليه سلطانها ، مستعينة بالفرس الذين نبتت منهم جذور الحركة الشيعية ، ومستخدمة من فى الشام والعراق من دعاة الشيعة .

وفى خضم هذه الخلافات وما صاحبها من معارك ، ظهرت جماعات دينية تعتنق مذاهب غريبة ، وتفرض نفسها على المسلمين وتحكمهم شرًّا وإرهابًا . . فهناك القرامطة يحكمون الجزيرة العربية ، من مكة والمدينة إلى كل المناطق التى تمتد على الخليج العربى . . وهناك جماعة الباطنية ، وتشتهر فرقها المعروفة بفرق الحشيشية أوالحشاشين ، وقد سيطرت على بقاع كثيرة من الشام ، وصارت لها قلاعها وحصونها ، ولها أيضًا فرقها الإرهابية التى اغتالت عددًا لا يحصى من الأمراء والسلاطين !

وانقسم العالم الإسلامى ، بل انشطر انشطارًا خطيرًا . . وتجسم هذا فى الصراع والقتال الذى عم الساحة الإسلامية ، وخاصة بين دولة السلاجقة ودولة الفاطميين . . وهو صراع بين قوتين سياسيتين ، عسكريتين ، تريد كل منهما أن تقهر الأخرى ، وأن تفرض زعامتها على العالم الإسلامى كله . . بينما هناك قوة أخرى من الغرب ترى أن هذا الانقسام ، وهذه الفوضى فى العالم الإسلامى ، هو الذى يفتح لها الطريق إلى بلاد المسلمين . . ولهذا ، بدأت الحركة الصليبية متزامنة تمامًا مع حالة الضعف والتخاذل ، وموجات الفوضى والاضطراب ، التى غمرت العالم الإسلامى شرقا وغربا .

لو عبرنا عدة قرون من الزمن ، ووصلنا إلى نهاية القرن التاسع عشر ، لوجدنا أن التاريخ يعيد نفسه . .

إن الغزوة الثانية للعالم العربى والإسلامى ، وهى الغزوة الصهيونية قد بذرت فكرتها الأولى ، وبدأت محاولاتها التمهيدية ، فى وقت كان فيه

العرب جميعا ، والمسلمون جميعا ، غارقين فى نوم عميق ، تنتابهم فيه أضغاث الجهل والضعف والاستكانة . . وكانوا جميعا لا يملكون من أمرهم شيئًا ، فبلادهم تقاسمتها فيما بينها عدة دول أوروبية ، بريطانيا وفرنسا وروسيا وهولندة وإيطاليا . . وما زالت هناك دول أوروبية أخرى ، ألمانيا والنمسا والمجر ، تريد نصيبا من ذلك العالم الإسلامى ، ومن غيره من بلاد الشرق والجنوب . . وحتى ما كان مستقلا من البلاد الإسلامية ، قد كان استقلاله صورة ووهما ؛ فإيران المستقلة كانت خاضعة للنفوذ الروسى من ناحية ، والنفوذ البريطانى من ناحية أخرى . وأما الدولة العثمانية الضخمة ، فقد شاخت وترهلت وتفككت أوصالها ، وصارت تسمى برجل أوروبا المريض ، الذى يجتمع الأقوياء فى مؤتمراتهم ليتفقوا على تقسيم تركته فيما بينهم .

فى تلك الظروف ، تحرك « المشروع الصهيونى » الذى نعرفه الآن . أما الفكرة الصهيونية ، أى فكرة استيلاء اليهود على فلسطين ، فإنها فكرة قديمة ، وقديمة جدًّا لعلها ترجع إلى ذلك الزمن البعيد، حين خرج اليهود من فلسطين . . وقد ظل اليهود يرددون فى صلواتهم أنهم لا ينسون أورشليم ، وأنهم إليها عائدون . . ولكن الأمر لم يتعد طوال هذه القرون دعاء فى الصلاة ، وحلما غامضا بالعودة إلى جبل صهيون . .

فلما صار العالم العربى والعالم الإسلامى إلى ما صار إليه ، فى آخر القرن التاسع عشر ، خرجت الفكرة الصهيونية من دائرة الصلوات والدعوات ، إلى مجال التحقيق والتنفيذ . . ووضع أبو الصهيونية الحديثة، تيودور هيرتزل ، فى سنة ١٨٩٧ على وجه التحديد ، كتابه «دولة اليهود » الذى كان بمثابة حجر الأساس فى المشروع الصهيونى الكبير . . وأخذ يكتب فى جريدته فى النمسا ويروج لفكرته ومشروعه ،

ويطوف العواصم ، ويقابل الحكام والوزراء . وتعارض الحكومات فى إقامة الدولة اليهودية فى قلب العالم العربى والإسلامى . . أما العرب والمسلمون فلا وجود لهم فى حسابه !

تصور مثلا ما كتبه هيرتزل فى مذكراته ، فى فصل عنوانه « مشروع العريش » . . لقد ذهب إلى لندن وتفاوض مع الحكومة البريطانية ، طالبًا إعطاءه سيناء لينشئ فيها الدولة اليهودية ، ويتخذ من مدينة العريش عاصمة لها . . ووافق رئيس الوزراء ، ووزير الخارجية ، ووزير الحربية ، ووزير المستعمرات على إعطائه سيناء ! وجاء إلى مصر ، وقابل رئيس وزرائها ، بطرس باشا غالى ، فقال له : إن السيادة على سيناء للدولة العثمانية ، فاذهب إليها وتفاوض معها ، فهى التى تستطيع أن تعطيك سيناء . . ولولا أن لورد كرومر ، الحاكم الفعلى لمصر ، اعترض على المشروع الذى يقتضى مد فرع النيل لرى سيناء ، فى وقت كان فيه ماء النيل لا يكفى لرى أرض الدلتا والوادى الضيق ، لتم إنشاء الدولة اليهودية فى سيناء ، منذ سبعين سنة أو أكثر . .

إن هذه الغزوات الأجنبية ، صليبية كانت أو صهيونية ، لا تنبت ولا تتحقق إلا عندما تضعف الأمة العربية وتهون . . وتصير حريتها وكرامتها وحقوقها سلعا تباع وتشترى ، ويصير حكامها نهبا للأطماع والأهواء والنزوات . . وعندئذ يسرى الضعف وتجرى الاستكانة فى عروق الحكام وعروق المحكومين جميعًا .

هكذا كان الأمر عندما قامت فكرة الحرب الصليبية قديما ، وكذلك كان الأمر عندما قامت فكرة الصهيونية حديثًا . .

* * *

ولنعد إلى الحرب الصليبية . . فنجد أنها بدأت عندما تحولت الدولة

الإسلامية الواحدة إلى عديد من الدويلات والإمارات . . فصارت المدينة الواحدة دولة ، وصار الإقليم الصغير دولة ، وصارت الغارات والمعارك بين هذه الدويلات الصغيرة هى محور حياة الحكام ، وهى أيضًا مصدر مشاكل المحكومين وهمومهم . .

وبلغ هذا التفكك أقصاه ، فى نهاية القرن الخامس الهجرى ، أو نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، وعندئذ قامت فكرة الحرب الصليبية ، وبدأت جموع الصليبيين وجيوشهم تزحف إلى الشرق .

ووقعت معارك كثيرة بين المسلمين المدافعين والصليبيين المهاجمين ، وقد انتصر المهاجمون فى كل معركة تقريبًا ، وانهزم المدافعون فى كل معركة تقريبا . . وكانت المدينة الإسلامية أو الدويلة الإسلامية لا تصمد أكثر من أيام أو أسابيع أو بضعة شهور . . فلم يمض أكثر من أربع سنوات، منذ أطلق البابا صيحته إلى الحرب الصليبية ، إلى يوم أن دخل الصليبيون مدينة القدس .

منذ دخلوا القدس فى سنة ٤٩٢ هـ ، وكان هذا فى يوم من أيام شهر يونية سنة ١٠٩٩ . . سوف نرى أن الذين جاءوا يحملون الإنجيل ويرفعون الصليب قاصدين القدس ، لم يتوقفوا عند القدس ، بل راحوا ينتشرون فى أرجاء المشرق الإسلامى ، ويقيمون فيه ممالك مسيحية . . فكانت هناك مملكة القدس المسيحية ، ولها ملك من أوروبا وبطريق من أوروبا . . وكانت هناك ثلاث ممالك مسيحية أخرى فى المشرق .

ثم اتجهوا إلى مصر ، لأن الهدف لم يكن مقصورًا على القدس . . بل الهدف الحقيقى هو ضرب الإسلام ، وهزيمة المسلمين ، وتمزيق العالم الإسلامى كله .

٢ ـ المسلمون أعطوا المسيحيين فى القدس « العهد العمرى » والصليبيون ارتكبوا فى القدس أبشع مذابح التاريخ

فتح الصليبيون بيت المقدس ، وأقاموا فيه وفيما حوله من المدن والقرى مملكة القدس المسيحية . ولو كان الهدف الوحيد من الحملة الصليبية هو بيت المقدس ، لاكتفوا بهذا الانتصار الكبير . فقد صار بيت المقدس تحت حكم المسيحيين لأول مرة فى التاريخ ، فعندما فتحها المسلمون ، كانت تحت حكم الرومان ، وكان الرومان يضطهدون أهلها المسيحيين ويعذبونهم ، ولهذا رحب المسيحيون بدخول المسلمين ، وطاف أسقفهم صفرنيوس مع عمر بن الخطاب يشاهدان معا معالم المدينة ، ويتلقاهما الناس مبتهجين . .

ولكن الهدف المسيحى ، أو الدافع الدينى ، لم يكن إلا وسيلة لإثارة عواطف جماهير المسيحيين ، فراحوا يحملون سلاحهم وزادهم ويرحلون الرحلة الطويلة الشاقة سائرين على الأقدام وعلى الدواب ، وسط عواصف الجليد فى أوروبا ، ووسط زوابع الرمال فى صحراء آسيا الوسطى ، حتى يصلوا إلى المكان المقدس الذى ولد فيه المسيح ، وبشر فيه برسالة المسيحية . . وإنما كانت هناك الأهداف الدنيوية ، التى

يسعى إليها ملوك أوروبا وأمراؤها ، الذين يريدون مجدًا ونفوذًا ومزيدًا من الملك ، ويسعى إليها تجار أوروبا الذين يريدون خيرات الشرق ومصنوعاته، ينقلونها إلى أوروبا ويتاجرون بها فى الأسواق ، ويسعى إليها عامة الناس الذين أرهقهم الفقر وفتكت بهم الأوبئة مرارًا ، فرحلوا إلى الشرق الذى يسمعون أنه بلاد خصيبة فسيحة ، وفيه مغانم كثيرة . . . . ومن وراء هذا كله ، الكنيسة الرومانية التى تريد أن تحارب المسلمين وتقهرهم أينما كانوا ، فشنت عليهم حربين صليبيتين فى وقت متقارب : حرب فى الأندلس غربا ، وحرب تستهدف المقدس شرقا . .

أما المذبحة أو المذابح ، التى دارت عندما دخلوا بيت المقدس وحكموه ، فدليل قاطع على أن الدافع لم يكن دينيًا ، وأن الهدف لم يكن مسيحيًّا . . وكيف يمكن أن تحدث تلك المذابح الرهيبة باسم السيد المسيح ؟

كتبوا إلى البابا فى روما رسالة سجلها المؤرخون المسيحيون فى كتبهم ، وقالوا فيها : « إن جنودنا كانوا يخوضون بسيقانهم حتى الركب فى دماء المسلمين » !

وقال المؤرخ الصليبى المشهور وليم الصورى : « كان بيت المقدس مخاضة واسعة من دماء المسلمين » .

واعتصمت جموع المسلمين فى مسجد عمر ، فيسجل أحد الكهنة المسيحيين ما رأى متألما . . « لقد أفرط قومنا فى سفك الدماء . . وكانت جثث القتلى تعوم فى الساحة هنا وهناك . . وكانت الأيدى والأذرع المبتورة تسبح ، كأنها تريد أن تتصل بجثث اقتطعت منها » .

أما المؤرخ المفكر الفرنسى جوستاف لوبون ، فقد قارن فى كتابه «حضارة العرب » بين فتوح العرب فى صدر الإسلام وبين الحروب

الصليبية بعد : « فأولئك العرب الذين خرجوا من الصحراء ، أعطوا المسيحيين فى القدس «العهد العمرى» المشهور، الذى تعهد فيه المسلمون بالمحافظة على كنائس المسيحيين ومقدساتهم . وأما أولئك الأوروبيون ، فكانوا يجوبون الشوارع ويصعدون إلى سطوح البيوت ، ليرووا غليلهم بالتقتيل، وكأنهم لبؤات خطفت أطفالها . وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إربا إربا . . وكانوا يشنقون مجموعة من الناس بعضهم أمام البعض بحبل واحد بغية السرعة . . وقد أمر الأمير بوهيموند بإحضار الأسرى إلى برج النصر ، فأمر بضرب رقاب الشيوخ والعجائز والضعاف ، أما الشبان والرجال فقد سيقوا ليباعوا فى سوق الرقيق » .

واقرأ ماشئت من الكتب عن الحروب الصليبية ، سواء ما كتبه المسلمون أو ما كتبه المسيحيون ، تجد أن ما دار فى بيت المقدس حينذاك، كان مذبحة شنيعة لا مثيل لها إلا المذبحة الصليبية الأخرى التى دارت فى الأندلس . . ومن الصليبيين من اشترك فى المعركتين ، مثل دايمبرت الذى عين بطريقا للقدس ، مكافأة له على ما فعله فى الأندلس حيث كان مندوبا باباويا فى إحدى المعارك الكبرى .

* * *

ومن الطبيعى أن يحل الرعب والفزع فى قلوب المسلمين جميعًا ، حكاما ومحكومين . . فالهزيمة الأليمة ، التى حلت بهم عندما انهزمت حاميتهم فضاعت القدس ، أرعبت جميع الحكام المسلمين فى فلسطين والشام ، وراح كل منهم يتوقع أن تحل بإمارته ما حل بالقدس .

فأما الحكام فى مدن فلسطين والشام ، فقد أسرعوا يتقربون إلى الصليبيين ، ويبعثون إليهم بالهدايا ، ويعقدون معهم اتفاقيات يدخلون بها فى حماية الصليبيين ، مقابل جزية يدفعونها . .

حاكم دمشق ، طلب إلى ملك بيت المقدس أن يسمح له بزيارته . . وذهب إليه محملا بالهدايا . . وطاف معه مدن مملكة القدس ، وأبدى إعجابه بما رأى . . واتفقا على التعاون فى الاستيلاء على بعض البلاد الإسلامية . . وفعلا ، أرسل حاكم دمشق ـ واسمه معين الدين ا ـ عساكره فاستولت على مدينة بانياس ، ثم سلمتها هدية للصليبيين . . وتعهد معين الدين أيضًا بأن يدفع للصليبيين جزية مقدارها عشرون ألف دينار كل شهر مدى الحياة .

وأما حاكم نابلس ، فقد أرسل وفدا إلى الصليبيين يدعوهم إلى تسلم المدينة ويدخل فى حمايتهم . . وجاء الفرسان الأوروبيون واستقبلوا على الرحب والسعة ، وتسلموا المدينة بسلام .

أما حاكم بيروت ، فقد ركب السفينة وفر إلى قبرص ، فلم يجد أهل المدينة بدا من أن يخرجوا إلى لقاء الصليبيين ، وهم يحملون الهدايا وسلالا من الفاكهة والأطعمة ، طالبين الأمان .

وقاومت صور ويافا وحيفا عدة أشهر . . ولكن الأسطول الصليبى القادم من موانى إيطاليا فى مئات من السفن تحمل آلافا من البحارة ، ضرب حصارا بحريًّا حول هذه الموانى ، فسقطت جميعًا ، ثم قطعوا الاتصال بينها وبين موانى مصر فى دمياط والإسكندرية . . وصارت التجارة بين المشرق وأوروبا فى أيدى التجار الأوروبيين وحدهم . . وعقد حكام الموانى الإسلامية معاهدات تمنح الأوروبيين امتيازات كثيرة ، وهى الامتيازات التى فرضوها عندما عادوا إلى المشرق بعد عدة قرون فى موجات الاستعمار . . ولم تلغ هذه الامتيازات التى ورثها الاستعمار عن الأيام الصليبية إلا منذ سنوات قليلة . . فلم تلغ فى مصر مثلا إلا فى سنة ١٩٣٦ . .

وراح الصليبيون يوطدون حكمهم وملكهم فى أرجاء فلسطين والشام، وأقاموا « مملكة بيت المقدس الصليبية » ، وعلى رأسها الملك بلدوين الأول الذى حكم المملكة ثمانية عشر عاما ، إلى أن مات سنة ١١١٨ ، وكانت مملكة كبيرة ، من مدنها الرئيسة بيت المقدس ونابلس وعكا ، وكانت تتبعها أربع إمارات مسيحية هى يافا والخليل وصيدا وشرق الأردن . . أما المدن الصغرى ، فقد وزعت على اثنى عشر أميرًا أوروبيًّا . .

وصار الطابع العام للبلاد طابعا مسيحيا أوروبيا . . وإن لم تندثر مظاهر الإسلام ، مثلما اندثرت فى الأندلس فيما بعد . فقد استطاع المسلمون فى الشرق أن يحتفظوا بمظاهر وجودهم ودينهم . . ولكن اللغة الفرنسية حلت محل اللغة العربية فى دوائر الحكم ، وأقبل كثير من العرب على تعلم الفرنسية لكى يتقربوا إلى الحكام ، ويجدوا عندهم وظيفة وأجرًا . . وكانوا ينطقون ويكتبون اسم بولدوين ، ملك القدس ، بغدوين !

ونقل الأوروبيون معهم إلى هذه البلاد الإسلامية عاداتهم وتقاليدهم، التى كان المسلمون يتعجبون منها . . . وروى لنا المؤرخون المسلمون فى تعجب شديد ، من أن الرجل الإفرنجى يسير مع زوجته فى الطريق العام أمام الناس . . وتعجبوا أكثر من أنه إذا تقابل الأصدقاء ، فإن الرجل منهم يتحدث إلى زوجة صديقه ، وإن صديقه لا يغضب من هذا . . وإذا طال الحديث ، فقد ينصرف الزوج ويترك زوجته مع صاحبه . . ولو عاش هؤلاء المؤرخون القدامى الآن ، لازدادوا تعجبا واندهاشا من أن التحية الآن صارت قبلة يطبعها الصديق على خد زوجة صديقه . . . ولم يكن هذا معروفا بين الأوروبيين فى ذلك الزمان .

ولم يكن المجتمع الصليبى فى الشرق قائما على مبادئ المسيحية الخالصة ، بل كان فيه كثير من الانحلال الأخلاقى ، فكانوا يستوردون نساء من أوروبا لأولئك الرجال الذين تركوا زوجاتهم هناك منذ شهور أو منذ سنين . . أما الزوجات اللواتى تركن فى أوروبا فكان الرجل يحصن زوجته بطوق من حديد تلبسه تحت ملابسها . . ونشأت صناعة جديدة فى أوروبا هى صناعة « حزام العفة » . . له قفل يحمله معه الزوج ، ليطمئن إلى أن زوجته لا يمسها بشر غيره طوال غيبته فى حملته الصليبية . . وكان هذا الطوق يصنع من حديد . . أما زوجات الأمراء والنبلاء فكان طوقهن محلى بالذهب مرصعا بالأحجار . . وفى متاحف أوروبا بعض أحزمة العفة هذه !

المهم أن الصليبيين صاروا يحكمون القدس وسائر فلسطين وبلاد الشام ، حتى أطراف العراق وأطراف الجزيرة العربية . . وصارت أجراس الكنائس تدق فى كل هذه الأرجاء ، وإن بقى صوت المؤذن ينبعث خافتا من المساجد والزوايا .

* * *

فأين كان العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ؟ . . وأين كان الحكام والسلاطين الكبار الذين يستطيعون أن يوقفوا الغزوة الصليبية التى انهار أمامها الحكام والأمراء الصغار فى فلسطين والشام ؟ . . ألم تكن هناك خلافة إسلامية تجمع كلمة المسلمين ، وتثير نخوتهم وحماستهم ، وتقودهم إلى مواجهة الغزاة دفاعًا عن دينهم وبلادهم ؟

بلى . . كانت هناك خلافتان إسلاميتان . . وكان هذا هو سبب البلاء والكارثة !

كان هناك خليفة عباسى فى بغداد ، واسمه المستظهر بالله . وكان

هناك خليفة فاطمى فى القاهرة واسمه المستنصر بالله . ودع عنك خليفة (ثالثا) هو الخليفة الأموى فى قرطبة عاصمة الأندلس . . .

وكان لكل منهما إيوان وديوان ، ولكنه لا يملك من الأمر شيئًا . . فله وزير هو الذى يحكم ويقضى . . فالذى كان يحكم فى القاهرة هو الوزير « الأفاضل شاهنشاه » . . هكذا كان لقبه . . كان الحكام المسلمون فى ذلك الوقت ، وفيما بعد ذلك الوقت ، لا يعنيهم شىء أكثر من الألقاب الفخمة الضخمة . . ولهذا نمر طوال القراءة فى تاريخ الحروب الصليبية بألقاب مهيبة هائلة مثل : افتخار الدولة ، شمس الملوك ، وشرف المعانى ، وواحد منهم اسمه « صمصام الدولة » ! . . وحاكم القدس الذى سلم المدينة للصليبيين كان اسمه « معين الدين »!

وكذلك ، كان الأمر فى الدولة الإسلامية فى الأندلس التى انهارت فيما بعد . . يحمل ملوكها وأمراؤها ألقابا ، لم يحلم بها حكام المسلمين أيام المجد والقوة . . . وهذا هو « مركب النقص » الذى عبر عنه الشاعر الأندلسى فقال :

ألقاب مملكة فى غير موضعها
كالقط يحكى انتفاخا صولة الأسد !

وكان الخليفتان العباسى والفاطمى ـ أو كان وزراؤهما ـ يتنافسان فيما بينهما أيهما يكون أوسع ملكا وأكثر أتباعًا ورعايا . . وكانت الشام وفلسطين هى منطقة التنافس والتناحر بينهما . . وكانت المعارك لا تتوقف بين جنود المسلمين من هنا وهناك . . وكانت بينهما حرب دينية أيضًا ، فالفاطميون يحاولون نشر مذهبهم الشيعى فى الشام ، والعباسيون يتهمونهم بأنهم أعداء الإسلام وأن منهم فتّاكا ، مثل الباطنية، يضللون المسلمين ويغتالون الرجال المخلصين . . وكانت

هناك ثورات تشب فى أنحاء هذا العالم الإسلامى كثورة القرامطة ، وثورة الزنج ، فتقوض الحكم الإسلامى حتى أوشك على الانهيار . .

وأكثر من هذا أن الجانبين ، العباسى والفاطمى ، أخذا يتقربان إلى الصليبيين ، ويعقدان معهم المعاهدات . . وكان الفاطميون ، على الأخص ، يتخذون من الصليبيين حلفاء ، ويحاربون أحيانا فى صفوفهم ، وعقدوا معهم معاهدة تقضى بأنه إذا تم النصر للصليبيين بمعاونة الفاطميين فإنهما يقتسمان البلاد فيما بينهما . . فيأخذ الصليبيون فلسطين كلها ، ويأخذ الفاطميون الشام كلها !

على أن الفاطميين كانوا أحسن حالا من العباسيين فى بغداد ، فهؤلاء صاروا أشبه بجثة هامدة لا حراك فيها . . أما الفاطميون فحاولوا أول الأمر أن ينقذوا ممتلكاتهم فى فلسطين ، وأن ينجدوا ولاتهم على هذه الممتلكات ، فأرسلوا أول الأمر حملة لتحمى القدس ، ولكنها وصلت إلى القدس متأخرة بعد أن دخلها الصليبيون بيوم واحد . . فأرسلوا حملة أخرى بقيادة « سعد الدولة » والتقت بكتيبة صليبية عند الرملة ، وانهزمت وقتل سعد الدولة هذا . . فأرسلوا حملة ثانية بقيادة « شرف المعالى » وكانت مكونة من عشرين ألفا ، وتقدمت بعض التقدم ، حتى وصلت إلى يافا ، فنزل الصليبيون إليهم من البحر وهزموهم وطردوهم من يافا . . ووقعت معركة فى عكا فانهزم واليها « زهر الدولة » ، وسلم للصليبيين وطلب الأمان . . ويئس الفاطميون وولاتهم من الحرب ، فاستسلموا للصليبيين الذين احتلوا جميع موانى البحر الأبيض وجميع مدن الشام وفلسطين !

أما الخليفة العباسى ، فقد استكان منذ البداية . . وكان سعيدًا بهزيمة الفاطميين وضياع ملكهم فى الشام . . وهكذا كانت العداوة بين

هؤلاء الحكام المسلمين وكراهية بعضهم بعضا أقوى كثيرًا من شعورهم تجاه الصليبيين وضرورة الاتحاد فى مواجهة الهجمة الصليبية الشديدة . . وقد سجل ابن الأثير ، الذى كتب تاريخ هذه الحروب الصليبية ، موقعة موقعة وسنة إثر سنة ، هذا التمزق الإسلامى فقال : « استطال الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، بما ملكوه من بلاد الإسلام ، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضا ، وتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء ، واختلفت الأهواء ، وتمزقت الأحوال » .

* * *

ولكن عامة الناس لم يرضوا بما رضى به الحكام والعساكر . . وكانوا أكثر إيمانا بدينهم ، وكانوا يتألمون ويتوجعون مما حل بهم وبأوطانهم وأهليهم ، وراحوا يطالبون بالجهاد وما يقتضيه الجهاد من بذل وتضحية .

وكان هؤلاء العامة يعبرون عن مشاعرهم ومطالبهم بطريقتهم . . ففى يوم الجمعة ، عندما يصعد الخطيب إلى المنبر يصيح الناس : وإسلاماه ! . . وا دين محمداه ! . . ثم يخرجون بعد الصلاة فى مظاهرة كبيرة ، ويتوجهون إلى قصر السلطان فيصيحون ، ويبكون ، وتتعالى بينهم أحيانا أصوات تحث السلطان أن يتحرك ويأمر جنوده ليقاتلوا الأعداء . .

أما علماء الإسلام وفقهاء الدين ، وهم قادة الشعب والمؤثرون فيه ، فكانوا فريقين : فريق يرى أن الجهاد فى سبيل الدين والوطن والنفس فريضة على كل مسلم : فريضة على الحاكم ، فيجب أن يعد جيشه وسلاحه ويحارب ، ويجب أن يبذل كل ما عنده من مال ، حتى لا يبقى له ولا لأحد من أهله أو حاشيته أو جنده إلا قوت يومه وسلاحه والمطية التى تحمله إلى ساحة القتال . وهى أيضًا فريضة على المحكومين ؛ فإذا نفد مال الدولة ، فيجب أن يخرجوا عن أموالهم جميعًا فى سبيل الله . .

وفريق آخر يرى أن بث مثل هذه الدعوة وحث الناس على القتال يثير الفتنة فيهم . . والفتنة أشد من القتل . . والفتنة نائمة ، ولعن الله من أيقظها !

وهكذا ظل الحكام نياما زهاء قرن من الزمان ، بينما المسلمون يرزحون تحت حكم الصليبيين الذين استقر بهم الأمر فى بلاد الإسلام ، إلا ما كان يحدث بينهم هم من خلافات وصراعات . . وأخذ الصليبيون يتحركون إلى العراق من ناحية ، وإلى مصر من ناحية .

٣ ـ الوحدة الإسلامية هزمت الصليبيين وأعادت بيت المقدس إلى المسلمين

تحول مجرى الحرب الصليبية إلى مصر . .

لم يعد هدف الصليبيين هدفا دينيا ، هو دخول بيت المقدس . . ولم يعد هدفا مسيحيا ، هو طرد المسلمين من بيت المقدس . . فقد تحقق هذا وذاك ، بل تحقق ما هو أكثر منه ، فاستولى الصليبيون على فلسطين وعلى الشام جميعا ، وأقاموا ممالك مسيحية على رأسها ملوك وأمراء أوروبيون ، ولها بطارقة يعينهم البابا من روما .

أما من بقى من المسلمين أميرًا أو حاكمًا هنا وهناك ، فقد صار خاضعًا للملوك الصليبيين ، يدفع لهم الجزية ويلتمس منهم الرضا والحماية .

وكان هذا الانتصار أكثر كثيرًا مما كان الصليبيون يتمنونه حين حملوا الصليب ، وحملوا السلاح ، وخرجوا من أرجاء أوروبا قاصدين بيت المقدس . . وصار واضحًا أن أولئك الأوروبيين يسعون إلى أهداف تتجاوز كثيرًا الهدف الدينى المسيحى . . إنهم يريدون أن يفتحوا المشرق ويحكموه ، ويستغلوا خيراته ، ويحتكروا تجارته ، ويتقاسمه أمراء أوروبا وحكامها ، فتكون أقطار الشرق امتدادًا لممالكهم وإماراتهم فى أوروبا . .

وكان النزاع بين هؤلاء الأمراء والحكام الأوروبيين مستمرًّا ، مثلما صار النزاع ، فيما بعد هذا بعدة قرون ، قائمًا بين الدول الاستعمارية التى تصارعت وتحاربت على اقتسام بلاد الشرق وأقطاره فى العصر الحديث . . وكذلك ، كان هناك نزاع وصراع بين الصليبيين القادمين من أوروبا وبين المسيحيين فى الشرق ، الذين تمثلهم الدولة البيزنطية . . كل فريق يريد أن يوسع آفاق مملكته ومناطق نفوذه وسيطرته ، وكل فريق يريد مزيدًا من أقطار المشرق ، يحكمه ويستغله .

وهكذا ، تحولت الحرب الصليبية إلى حرب استعمارية ، كتلك الحروب الاستعمارية فى العصر الحديث . .

وتحول مجرى الحملات الصليبية التالية ، فلم يعد متوجها إلى بيت المقدس ، وتدعيم النفوذ المسيحى فيه وفى أرجاء فلسطين والشام ، وإنما راح يتجه إلى مصر ، ويسعى إلى الاستيلاء عليها وإخضاعها للسيطرة الأوروبية والاستغلال الأوروبى . .

ونشبت الحرب مرارًا بين الصليبيين وبين حكام مصر ، مرة فى العهد الفاطمى ، ومرات فى العهد الأيوبى ، وانتصر الصليبيون وانهزم حكام مصر أحيانا ، وانهزم الصليبيون وانتصر حكام مصر أخيرًا .

ألا ترى أن التاريخ قد أعاد نفسه بعد مئات السنين ؟

إن الغزوة الصهيونية بدأت ، مثلما بدأت الغزوة الصليبية . . بدأت تسعى إلى إقامة مركز دينى روحى ثقافى فى فلسطين ، ثم راحت تطالب بإقامة مأوى وملجأ لليهود ، وسموه « الوطن القومى » . وكانت دعواهم الأولى قائمة على التوراة وما يرويه تاريخ اليهود ؛ فقد سعى فى أرض فلسطين أنبياء من بنى إسرائيل ، وقام فيها ملوك بنى إسرائيل ، فهم

يحنون إلى هذه البلاد ، ويريدون أن يحيوا فيها تراثهم الدينى والثقافى القديم . . ثم كانت دعواهم الثانية بأن اليهود لقوا فى أوروبا اضطهادًا أنزلته الحكومات ، وكراهية مارستها الشعوب على اختلافها ، سواء فى هذا الأسبان والروس والإنجليز والفرنسيون والألمان ، ثم بلغ ذروته أيام هتلر . . فهم يريدون بلدًا يلجئون إليه ، كلما عصفت بهم عواصف القسوة والاضطهاد .

وتقبل كثير من الناس هذه الدعاوى . . بل تقبلها كثير من العرب ، ومنهم زعماء ومفكرون وكتاب ، ونظروا إلى الأمر نظرة إنسانية كريمة متسامحة . . ولم يجدوا فى هذا ضرّا ولا إضرارًا بالعرب فى فلسطين وفى المشرق العربى كله .

وفى تلك المرحلة ، كان زعماء الحركة الصهيونية حريصين على ألا يذكروا كلمة « الدولة اليهودية » . . وأصدروا تعليمات مشددة إلى دعاة الصهيونية فى شتى أرجاء العالم أن يتجنبوا تماما الحديث عن الدولة اليهودية ، وأن يقولوا إن هذه مجرد فكرة ساورت عقل تيودور هيرتزل . . أما نحن فلا نريد إلا وطنا قوميا لليهود فى فلسطين ، التى ارتبطنا بها دينيا وروحيا منذ زمن طويل . .

ثم انظر ماذا حدث بعد هذا . . قامت دولة يهودية استولت بالسلاح والإرهاب منذ اليوم الأول على ثلثى فلسطين . . ثم لم تلبث أن التهمت ما بقى من فلسطين . . ثم حاولت مرات عدة أن تستولى على بلاد أخرى، واستولت مرتين على جزء كبير من أرض مصر ، ولم تجل عنه إلا بعد أن وضعت مصر ثمن الجلاء . . واستولت ، وما تزال تستولى ، على منطقة هامة من أرض سورية . . واحتلت ، وما تزال تحتل ، جزءًا كبيرًا من أرض لبنان . . وتحول المركز الدينى الروحى الموهوم إلى قاعدة

عسكرية مدججة بأخطر أنواع السلاح ، وربما بالسلاح الذرى أيضًا ، ويمارس أهلها الحرب والقتل والعدوان والإرهاب . .

ويحدث هذا فى عصر فيه قانون دولى ، وفيه أمم متحدة لها ميثاق يحرم الاستيلاء على أرض الدول الأخرى بالقوة . . فما بالك بعصر الحروب الصليبية الذى لم يكن فيه قانون دولى ، فإن الأوروبيين لم يعرفوا القانون الدولى إلا بعد أن جاءوا إلى المشرق فى تلك الحملات الصليبية المتتابعة ، واحتلوا البلاد الإسلامية ، وعرفوا من المسلمين أن شريعتهم أقامت قوانين للحرب وللسلام ، وعرف الأوروبيون لأول مرة « القانون الدولى » الذى يتباهون به الآن !

ما فعلته الغزوة الصهيونية فى أيامنا هذه ، فعلت مثله وأكثر منه الغزوة الصليبية منذ تسعة قرون . . فهل تكون النتيجة النهائية للغزوة الأخيرة مثلما كانت للغزوة الأولى . ؟ إنى أريد أن أعتقد أن التاريخ سيعيد نفسه . . وأريد أن أوهم نفسى بأن هذا هو مآل الغزوة الصهيونية ، رغم الظلام المخيم على دنيانا فى هذه الأيام ، ومنذ عدة سنين .

* * *

فى تلك الأيام الغابرة التى بلغ فيها الصليبيون أقصى انتصاراتهم ، راحوا يتحركون فى أرجاء العالم الإسلامى ويزحفون أينما استطاعوا ، دون أن يلقوا من المسلمين ردا ولا صدا . . إلا حملات رمزية ضعيفة هزيلة ، سيرتها الدولة الفاطمية من مصر ، بعد أن شعرت هذه الدولة بالحرج أمام المسلمين ، وبعد أن كان المصلون فى المساجد يلعنون المتخاذلين .

سير الفاطميون ثلاث حملات رمزية . . كان قوام الأولى ستمائة جندى ، عادوا قبل أن يصلوا إلى القدس ، عندما علموا أن الصليبيين قد دخلوا القدس فعلا . . وفى الحملة الثانية والثالثة أرسلوا عددا أكبر

من الفرسان والمقاتلين ، والتقوا بكتائب من الصليبيين عند مدينة الرملة، وانهزموا وعادوا أدراجهم إلى مصر . . ولم تكن سفن الفاطميين أحسن حظا من جيشهم ، فقد أبحرت حتى اقتربت من ميناء صور . . ثم ارتدت مذعورة ، عندما رأت الأسطول الصليبي الذى حشده بحارة الموانى فى جنوة وبيزا والبندقية فى إيطاليا ، وكان أسطولا مؤلفا من مئات السفن . وفرت سفن الفاطميين ، عائدة . . إلى مصر ، فهبت عليها العواصف ، فغرقت فى البحر !

على أن هذه الحملات ، على صغرها وضعفها ، جعلت الصليبيين يفكرون تفكيرًا جادًّا فى أن يتجهوا إلى غزو مصر ، وإلى الإسراع بضربها، رغم أن الفاطميين كفوا عن بذل أى جهد فى مقاومة الصليبيين ، بل تحالفوا معهم فى وقت من الأوقات ، واتفقوا على اقتسام بلاد الشام فيما بينهما ! . . وربما تبين الصليبيون ، منذ ذلك الوقت ، أن الفاطميين قد شاخوا وتآكلوا ،وأنهم لن يعمروا طويلاً ، فإذا انتهت دولتهم ، وحلت محلها دولة فتية قوية ، فعندئذ يكون هناك خطر كبير يخرج عليهم من مصر . . فقرر الصليبيون أن يغيروا مجرى الحرب الصليبية ويوجهوها إلى مصر ، ليقضوا عليها مثلما قضوا من قبل على فلسطين والشام . . وهى ضعيفة منهوكة . .

لم يكن التفكير فى ضرب مصر ، والاستيلاء عليها ، مجرد خاطر خطر لأحد أمراء الصليبيين أو فرسانهم . . ولكنه كان موضع تفكير واختلاف فى الرأى بينهم . . فكان هناك فريق يرى أن يركزوا على تدعيم سلطانهم وإحكام قبضتهم على بلاد الشام وفلسطين ، بينما كان هناك فريق آخر يرى الاتجاه إلى مصر والاستيلاء عليها ، فإن تم لهم هذا لم يستطع حكام المدن فى الشام وفى فلسطين إلا أن يستكينوا ويسلموا الأمر كله

للصليبيين . . وعندئذ تقع البلاد الإسلامية جميعًا فى قبضة الصليبيين ، لا يهددهم شىء من شمال أو من جنوب .

وخرج الملك بلدوين الأول ، على رأس كتيبة صغيرة تضم مائتين من الفرسان ، وأربعمائة من المشاة ، وسار إلى مصر . . واستولى على العريش فى الشمال ، وعلى إيلات فى الجنوب . . وأقام قلعة هنا وقلعة هناك ليقطع طريق القوافل بين مصر والشام . . وسارت الكتيبة قليلاً تكتشف المنطقة تمهيدًا لحملة كبيرة تغزو مصر . . وكان الناس قد أخلوا قراهم ، وفروا منها خوفا من الصليبيين . . ثم تأجل غزو مصر ، فقد مات بلدوين فى العريش سنة ١١١٨ م .

كانت هذه حملة استطلاعية ، اكتشفوا فيها الطرق إلى غزو مصر ، وأيقنوا أن الخلافة الفاطمية أضعف من أن تستطيع المقاومة والدفاع . . فقد انتهى عهد الخلفاء الفاطميين الكبار الأقوياء ، وصار الخليفة ـ واسمه الفائز ابن الظاهر ـ مراهقًا اختاره وزيره التركى « طلائع » فزوجه ابنته ونصبه خليفة . . ولما كبر الولد قتل صهره ، وأحل محله واحدًا لقبه « مجد الإسلام » ، ولكن حاكم الصعيد ـ واسمه « شاور » لم يعجبه هذا ، فجاء وقتل مجد الإسلام ، ونصب نفسه وزيرًا . . وكان رجلاً ظالمًا قاسيًا ، أرعب الناس ، ولم يخلصهم منه إلا « أبو الأشبال ضرغام » . . هذا اسمه ولقبه ! . . فقتل شاور وحل محله وزيرًا . . وكان كل وزير يتولى الحكم فترة قصيرة قد لا تتجاوز بضعة شهور .

ألم يكن هذا وحده كافيا لإغراء الصليبيين بغزو مصر ؟

على أن استعداد الصليبيين لغزو مصر ، استغرق فترة طويلة ، شغلوا خلالها بتوطيد حكمهم فى أرجاء الشام . . وفى الإغارة على أطراف العراق وآسيا الوسطى . . وفى مغامرة للاستيلاء على البحر الأحمر ،

وقطع طرق الحجاج ، والنزول فى أرض الحجاز ، قاصدين الحرمين الإسلاميين ، مما آثار شعور المسلمين فى كل مكان . . وأثار حتى شعور بعض الحكام المسلمين الذين حالفوا الصليبيين وأسلموهم زمام الأمور. .

ويشاء الله أن تكون فترة الإعداد لغزو مصر ، وهى فترة بلغت خمسين سنة ، مرحلة تغيرت فيها أحوال المسلمين ، وبدل الله ضعفهم قوة ، وخرج من بينهم من نذر نفسه لله فى قتال الصليبيين . . بعد أن هداه الله إلى الطريق السوى ، الذى ينبغى أن يسير فيه المسلمون إذا أرادوا النصر، وأرادوا تحرير دينهم وأوطانهم من قبضة الصليبيين الأوروبيين .

شاء الله أن يظهر وسط الظلام الذى يغمر العالم الإسلامى ، ووسط الفوضى التى يعيش فيها المسلمون مستضعفين مستكينين ، بضعة رجال يدركون أنه لا سبيل إلى قهر الصليبيين إلا إذا اتحد العالم الإسلامى اتحادًا ، يمكن من تطويق الصليبيين ومحاصرتهم من كل جانب، واختراق قواعدهم وقلاعهم التى أقاموها وسط هذا العالم الإسلامى . . فقرر هؤلاء الرجال أن يكون هدفهم أولا وقبل كل شىء تكوين هذه الوحدة الإسلامية التى تمتد من آسيا الوسطى شمالا ، والعراق وفارس شرقا ، مخترقة المدن والموانى فى الشام وفلسطين ، وبالغة مهما كان الأمر ومهما كانت التضحية إلى مصر جنوبا . . بل تطلع هؤلاء الرجال إلى أن يجعلوا من مصر مركزًا لهذه الوحدة الإسلامية ، ومصدرًا لقوتها ، ونقطة الانطلاق منها حين يحين الوقت فيأذن الله بتحرير القدس .

ولم يكن هؤلاء الرجال من المسلمين العرب الذين اجتاح الصليبيون بلادهم . . ولم يكونوا من رجال الخلافة العباسية القائمة فى بغداد ، ولا من أشياع الخلافة الفاطمية اللاهية فى القاهرة . . لم يكونوا عربا من

الشام أو من فلسطين أو العراق أو مصر . . وإنما كانوا أتراكا وسلاجقة وأكرادًا .

ربما كان السبب فى هذا ، أن حكام العرب وزعماءهم فى ذلك الزمن لم يكونوا عربا إلا فيما ندر ، وإنما كان الحكم وكانت السلطة فى أيدى العناصر التى احتضنها الخلفاء منذ أوائل العصر العباسى ، واعتمدوا عليها واطمأنوا إليها فولوها زمام الأمور . . بينما صار العرب أشبه بمواطنين من الدرجة الثانية ، يمارسون الزراعة والتجارة والحرف المختلفة، أما الوزارة والإمارة والقيادة ، فقد تولتها العناصر الإسلامية الأخرى ، من فرس ثم من أتراك على اختلاف فروعهم ، ومن مماليك من شتى الأقطار . . فهم أصحاب السلطة والنفوذ ، ومنهم يتكون الجيش بجميع عساكره وجنوده . . وإن بقى الخليفة العباسى وحده ، يفاخر بأجداده وأعمامه العرب ، وبقى الخليفة الفاطمى يفاخر بأنه من نسل النبى العربى عليه الصلاة والسلام . . وإن كان هذا الخليفة وذاك ، وأسلافهما من قبل ، قد هبطوا بالعرب ووضعوهم فى درجة أدنى من مرتبة العناصر الإسلامية الأخرى ، ابتداء بالبرامكة ، وانتهاء بالمماليك . .

والتاريخ المفصل للحروب الصليبية ، لا يكاد يذكر اسما عربيا يدل على أن صاحبه عراقى أو شامى . . وإنما هى أسماء تركية أو فارسية أو كردية . . وأحيانا تجد اسما أرمنيا !

فحاكم دمشق اسمه طغتكين ، وحاكم حمص اسمه خيمخان بن قراجا ، وحاكم الموصل اسمه كربوقا ، وحاكم ماروين بالشام اسمه تاش بن إيلغازى .

وهناك السلطان بركيار . . وهناك معين الدين أُنُر (بضم الهمزة والنون) . . وهناك مجير الدين أَبَق (بفتح الهمزة والباء) .

وقواد الجيش منهم الأمير كتندى ، والأمير إيلفازى ، والأمير جيوش بك . وهناك قائد مهم اسمه برسق بن برسق .

وإذا جاء اسم امرأة مسلمة فى الحروب الصليبية ، فهو « زمرد خاتون» وما شابه ذلك .

ولاشك فى أن الإسلام سوى بين المسلم العربى والمسلم غير العربى . وإذا كان غير العربى أهلا لتولى منصب الحكم ، فهو أولى من عربى غير مؤهل لتولى أمور الرعية . . والقومية فى نظر الإسلام ليست قومية وطن ولا جنس ولا لون . وإنما القومية هى الإسلام ، ولا فضل لمسلم على مسلم إلا بالتقوى .

وقد شاء الله أن يظهر من بين تلك العناصر الإسلامية ، وعلى وجه التخصيص ، من العنصر السلجوقى ومن العنصر الكردى ، رجال كانوا فعلاً من أهل التقوى . . جاهدوا فى سبيل دينهم وبلادهم أعظم الجهاد، فشقوا الطريق إلى الوحدة الإسلامية ، ثم أقاموها . . وقادوا المسلمين إلى نصر يتلوه نصر على الصليبيين .

خرج عماد الدين زنكى ، من الصقالبة ، محاربا مجاهدًا حتى استشهد. وخرج منهم نور الدين محمود ، فحارب حتى انتزع دمشق والشام من الصليبيين ، ثم سير جيشه إلى مصر ليقيم وحدة إسلامية قوية مرهوبة .

وخرج فى جيشه إلى مصر شاب كردى اسمه صلاح الدين . . هذا البطل الذى كتب له فيما بعد أن يخرج بجيش من مصر يهزم الصليبيين ، ويتقدم إلى بيت المقدس فيحرره من قبضتهم ، ويعيده بلدًا إسلاميًّا كما كان منذ دخله العرب المسلمون ، وتسلمه عمر بن الخطاب أمانة فى عنق المسلمين . .

٤ ـ ثلاثة من عظماء المسلمين
وضعوا نهاية لغزوات الصليبيين

استمر الصليبيون فى أوج قوتهم ، واستمر المسلمون فى درك الضعف ، زهاء قرن من الزمان .

فقد وصل الصليبيون إلى المشرق ، واستولوا على عديد من مدن الشام ، ثم توجوا انتصاراتهم بدخول بيت المقدس . . وكان هذا فى السنة الأخيرة من القرن الحادى عشر . . ولا نكاد نعرف هل كان المسلمون فى الشرق أحياء أم أمواتًا . . وظل الأمر هكذا ، حتى اقترب منتصف القرن الثالث عشر .

نقرأ ، ونقرأ ، تاريخ هذه الفترة الطويلة من الزمن ، فنظن أن تلك الأراضى التى تسمى الشام وفلسطين والأردن ليست إلا مستعمرات ، بل مملكات ، أوروبية ، ملوكها وأمراؤها أوروبيون ، والأحداث التى تجرى فيها امتداد لما يجرى فى أوروبا . . والمعارك فيها لا تتوقف ، ولكنها ليست معارك بين المسلمين والصليبيين ، وإنما هى معارك بين المسيحيين بعضهم بعضا . فهناك صراع بين الدولة البيزنطية التى تمثل المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس ، وبين المسيحيين الأوروبيين الكاثوليك الذين يدينون بالولاء الدينى والسياسى للبابا فى روما . . وهناك صراعات شتى

بين ملوك أوروبا كل يريد توسيع مملكته بمزيد من المستعمرات فى الشرق .

وجميع الأسماء المهمة التى يذكرها تاريخ هذه الفترة تكاد تكون أسماء أوروبية . . بولدوين الأول . . والثانى . . والثالث . . والرابع .

ونقرأ مرارًا وتكرارًا اسم بوهيمتد من الأول إلى الخامس ، ونتكراد ، وروجرز ، وريموند ، وغودفرى ، وريغنالد الذى عرفه المسلمون باسم أرتاط . . والذى جرد حملة للاستيلاء على مكة والمدينة . . وأيضا حنا كومنين البيزنطى !

أما المسلمون ، فكل ما نقرؤه عنهم طول قرن ونصف القرن ، هو أن أميرًا منهم استنجد بالصليبيين القادمين من أوروبا ، فاستنجد الأمير الآخر بالدولة البيزنطية . . أو أن أتابك دمشق ، أى حاكمها ، وضع نفسه تحت حماية أحد من الأمراء والفرسان الصليبيين ، فراح أتابك حلب أو أتابك الموصل ، يسعى ليضع نفسه تحت حماية أمير أو فارس صليبى آخر . . أما إذا كانت هناك موقعة بين المسلمين والصليبيين ، فهى فى الغالب ليست إلا عملية من عمليات قطع الطريق ، ونهب شىء من الأقوات ، والفرار بشىء من الغنائم ! . . ورغم هذا ، فما زال عامة المسلمين يذهبون إلى المساجد يصلون ، ومازالوا يستمعون إلى خطيب المسجد يدعو للخليفة فى بغداد ، أو الخليفة فى القاهرة . .

ولو أردت أن تتخيل صورة العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، فأمامك صورة مصغرة للعالم الإسلامى الذى نعيش فيه الآن . . هذا العالم الذى نشهد فيه ما نشهد من خلافات وصراعات ، ومن أحقاد وأطماع ، ومن تخاذل واستهانة بعظائم الأمور . . ونشهد فيه الجميع يتكالبون على هذه أو تلك من الدول الأجنبية ذات القوة والهيمنة فى عصرنا هذا ، ويلتمس

منها الحماية والمعونة . . إن هذا العالم الإسلامى المعاصر ، هو صورة مصغرة من العالم الإسلامى ، عندما هبت عليه عواصف الحروب الصليبية . . بل لابد أن تضاعف الصورة الحالية ، مرات ومرات ، حتى تستطيع أن تصور دنيا المسلمين التى هانت وذلت ، ثم انهارت أمام الزحف الصليبى الأوروبى الجارف . .

* * *

ولكن . . . ينبغى أن نعرف أن الأوروبيين كانوا ، قبل أن تبدأ الحرب الصليبية ، مثل المسلمين تمامًا . .

كانت بلادهم ـ قبل أن يبدأ الزحف الصليبى ـ موزعة بين عديد من الملوك والأمراء والنبلاء والفرسان ، وكانوا جميعًا يخوضون معارك فيما بينهم لا تقف ولا تنتهى . . وكان الواحد منهم يخرج من معركة ضد هذا الجار أو هذا العدو ، فلا يكاد يلتقط أنفاسه قليلاً ، حتى يستأنف القتال فى معركة جديدة مع عدوه القديم أو عدو جديد . . وكانت المعاهدات تعقد بينهم لا لتقيم صلحا وسلاما ، وإنما ليتحالف هذا ضد هذا ، وليستولى ذاك على إمارة ذاك ، أو هى هدنة يلتقطون فيها أنفاسهم ويتأهبون للقتال مرة أخرى . .

كان هذا هو عهد الإقطاع فى أوروبا وفى الشرق على السواء . . كل له إقطاعيته ، وكل يريد حمايتها ، ويريد توسيعها . . فتصير الإقطاعية الصغيرة إمارة كبيرة ، وتصير الإمارة الكبيرة مملكة فسيحة ، وهلم جرا . .

ثم ظهر فى المسيحيين زعيم تحنو أمامه الرءوس وترهف الأسماع . . فدعاهم جميعا إلى الكف عن قتال بعضهم بعضا ، وإلى التوجه جميعا صفًّا واحدًا إلى قتال العدو المشترك . . إلى قتال أولئك المسلمين الذين يحكمون الآن فى بلاد كانت مهد المسيح .

هذا الزعيم الكبير ، هو البابا فى روما . . فقد بدأ الزحف الصليبى على المشرق ، عندما ألقى البابا أوربان الثانى خطابه المشهور ، بل أصدر أوامره إلى الملوك والأمراء قائلاً : « بأمر الله تتوقف العمليات الحربية بين المسيحيين فى أوروبا ، ويتجه الجميع بأسلحتهم إلى هزيمة المسلمين » . ثم وجه كلامه إلى المسيحيين جميعًا ، فقال : طالما أثرتم نيران الحروب والفتن فيما بينكم . . ولا خير فى هذا . . أما الآن فأذهبوا ، وحاربوا البرابرة ، وخلصوا البلاد المقدسة ، وامتلكوها لأنفسكم ؛ فإنها ، كما جاء فى التوراة ، تفيض لبنا وعسلاً .

وتحركت جموع المسيحيين من شتى أرجاء أوروبا ، يتقدمهم الملوك والأمراء والنبلاء والفرسان والرهبان ، زاحفين إلى الشرق . . والتقت الجموع القادمة من كل مكان فى القسطنطينية ، وقد خلفوا وراء ظهورهم خلافاتهم المذهبية مع المسيحيين الشرقيين ، وارتفع بابا روما وإمبراطور بيزنطة فوق مستوى الصراعات ، التى دامت دهرًا طويلاً ، واتحدوا جميعًا فى جبهة واحدة وساروا صفا واحدًا للقتال .

لم يكن فى العالم الإسلامى مثل هذا الزعيم . . لا دينيا ولا سياسيًّا .

فلا خليفة المسلمين القابع فى بغداد ، ولا خليفتهم الآخر فى القاهرة ، فكر فى أن يفعل ما فعله البابا فى روما . . ولو فعل لما استمع إليه أحد من السلاطين والأمراء . .

وهؤلاء السلاطين والأمراء ، ليس بينهم واحد يملك من القوة والسلطة ، أو له من المكانة والهيبة ، ما يستطيع به أن يوحد هؤلاء المسلمين المشتتين المتنافرين المتقاتلين .

لم يكن بينهم الزعيم الذى يتبعه الناس ، ولا الحاكم الذى يطيعه الناس ، ولا السلطان المهيب الذى يخيف الولاة والأمراء ، فيلقون وراء

ظهورهم ما يملأ الصدور من أحقاد وأطماع ، وما يعشش فى الرءوس من مخاوف وأوهام . . ويكون من المسامين جبهة واحدة تتصدى للصليبيين الزاحفين ، وتدفع عنهم وعن أوطانهم وعن دينهم الشر المستطير .

* * *

ثم يشاء الله أن يظهر هذا الرجل بعد قرن ونصف القرن من الزمان .

بل ظهر رجل ، من بعده رجل ، ومن بعده رجل ثالث كان من أعظم العظماء فى تاريخ الإسلام وفى تاريخ العالم .

ظهر عماد الدين زنكى ، ثم مات شهيدًا ، فخلفه نور الدين محمود ، الذى وضع الأساس ، فأقام عليه خليفته صلاح الدين الأيوبى صرحا شامخًا . .

كان هؤلاء العظماء الثلاثة يؤمنون بأنه لا سبيل إلى التصدى للصليبيين، ولا سبيل إلى تحرير بلاد المسلمين ، إلا إذا اتحد المسلمون جميعًا ، وكونوا جبهة واحدة تتمثل فى دولة واحدة . . دولة إسلامية تشمل العراق والشام وفلسطين ومصر والحجاز وحتى ما وراء هذا من بلاد المسلمين جميعا . .

وآمن الثلاثة ، على اختلاف بينهم ، بأنه لا سبيل إلى تكوين هذه الدولة الإسلامية الكبيرة ، من أشتات الدويلات والإمارات الإسلامية المبعثرة الضائعة ، إلا بحد السيف . . وقطع الرقاب إذا اقتضى الأمر . . وقد مثل كل منهم هذا !

وليس معنى هذا أن أحدًا منهم كان متهورًا طائشًا ، ولا قاسيًا فاجرا . . بل كان الرجال الثلاثة أهل ورع وتقوى وإيمان . . . وكانوا مسلمين صادقين يؤمنون بأن الجهاد فريضة على كل مسلم ، حاكما كان

أو محكومًا ، وأن الجهاد فى الإسلام له مبادئه وقواعده وحدوده . . وكانوا إلى جانب هذا مخططين سياسيين ، يرسمون « إستراتيجية » سياسية وعسكرية ، لتكوين الدولة الإسلامية المتحدة . . .

ولا أستطيع ، فى هذا المجال ، إلا أن أكتب كلمة وجيزة عن كل منهم ، تشير إشارة عابرة إلى الإستراتيجية التى رسموها ، فخطا عماد الدين خطوة فى طريق تنفيذها . . ثم قطع نور الدين شوطا بعيدًا فى الطريق . . ثم مضى صلاح الدين بعبقريته السياسية وعبقريته العسكرية فبلغ الهدف . . وأقام الإمبراطورية الإسلامية العظيمة . . وكان هذا إيذانا بنهاية الحروب الصليبية وطى صفحتها من التاريخ . .

فأما عماد الدين ، فكان جنديا باسلا وقائدًا قديرًا . . فولاه السلطان السلجوقى ، الذى كان يحكم العراق وفارس وخراسان ، ولاية الموصل . . فرأى أن يجعل من هذه الولاية نواة القوة ، التى يجب تكوينها لمحاربة الصليبيين . وسير جيشه إلى عدد من المواقع المجاورة فأخذها ، ثم تطلع إلى الشام ، وهى معقل الصليبيين ومراحهم ، وإن كان فيها عدد من الأمراء المسلمين يعيشون فى حماية الصليبيين . . وسير جيشه إلى الشام ، واستولى على عدد من مدنها المهمة ، بعد أن خاض عند كل مدينة معركة دامية مع أمراء تلك المدن ومع حلفائهم الصليبيين . . . وانتصر وانهزم ، وقتل وأسر الكثيرين ، ففقد من رجاله كثيرًا من القتلى والأسرى . . وحاول أن يفتتح دمشق وكاد . . وصار خطرًا على الصليبيين الأوروبيين ، فاستنجدوا بالصليبيين البيزنطيين . وجاء الإمبراطور البيزنطى بنفسه يقود جيشه . . وتصدى لهم جيش عماد الدين ، وكسب منهم عددًا من المدن ، فلما قتل كانت سيطرة الصليبيين على الشام قد تزعزعت ، وتبين للمسلمين أخيرًا أن هزيمتهم ليست أمرًا مستحيلاً .

وأما نور الدين ، فقد كانت خطته أوسع مدى . . فقد تطلع إلى مصر . . وتطلع إلى إقامة دولة موحدة تضم مصر والشام . . وكان على يقين من أنه إذا امتدت يد الشام إلى مصر ، وامتدت يد مصر إلى الشام، وقام بين القطرين اتحاد متين . . . فإن هذا هو الطوق الذى يستطيع أن يطبق على الصليبيين حتى ينتهى أمرهم ، إما بالهزيمة والفناء . . وإما بالفرار .

وسير نور الدين جزءًا من جيشه إلى مصر . . واحتفظ بجزء فى الشام، حيث ظل يقاتل الصليبيين وأعوانهم . . ولم يكن فى مسيرته هذه غازيا ولا معتديا ، بل إن فريقا من حكام مصر استنجد به ضد فريق آخر كان قد استنجد بالصليبيين ! . . فهكذا كانت الأمور تجرى فى العالم الإسلامى حينذاك .

وقاد نور الدين جيشه الذاهب إلى مصر فى إحدى المرات ، فلما عاد إلى الشام ظل يفكر فى مصر . . وكان فى « غاية القهر » ، كما يقول المؤرخون . . . وإنه ظل «بعد عودته منها لا يزال يتحدث بها ويقصدها، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير » . . .

وفى المرة الثالثة وصل جيش نور الدين إلى مصر ، ودخل أرضها الشرقية ، وعبر النيل ، وعسكر الجيش فى الجيزة ، تجاه الفسطاط ، حيث يقيم الخليفة الفاطمى، ومعه وزيره من المماليك ، واسمه شاور. .

واستنجد شاور بالصليبيين . . واستحثهم على المجىء إلى مصر ، كما يسجل هذا ابن الأثير . . ويسجل أيضًا أنهم « علموا أنه ، إن ملكها نور الدين وأضافها إلى البلاد الشامية ، لم يبق لهم ببيت المقدس والشام مقام ، وأنه يستأصلهم وتصير بلادهم فى وسط بلاده » .

كلام واضح كل الوضوح ، فى إدراك المسلمين ، حتى فى ذلك الوقت المظلم ، أن وحدة المسلمين فى الشمال والجنوب هى السبيل الوحيد إلى قهر الصليبيين وتخليص بلادهم . .

وشاء القدر أن يكون بين جنود نور الدين ، الذين ذهبوا إلى مصر ، جندى شاب اسمه صلاح الدين يوسف . . .

٥ ـ جدد صلاح الدين سيرة عمر بن الخطاب ودخل المسلمون بيت المقدس كما دخلوه أول مرة

شاء القدر أن يكون من جنود الجيش الذى سيره نور الدين محمود ، من الشام إلى مصر ، جندى شاب اسمه صلاح الدين يوسف .

ولم يكن صلاح الدين راغبًا فى الذهاب إلى مصر ، رغم أن الجيش كان بقيادة عمه أسد الدين شيركوه . . وطلب إلى عمه أن يعفيه من هذه المهمة ، ليبقى فى الشام مع الجند يواصلون قتال الصليبين . . منتصرين حينا ومنهزمين حينا . . ولكنهم ماضون ، على أى حال ، فى تكوين الجبهة الإسلامية الموحدة ، التى بدأت تمتد من العراق إلى الشام . ثم كانت هذه الحملة الجديدة إلى مصر ، وهى أهم وأغنى البلاد الإسلامية ، فامتدت الجبهة إلى الجنوب ، وعندئذ سوف يكتمل الحصار حول الصليبيين .

وأصر أسد الدين ، على أن يسافر ابن أخيه صلاح الدين ، مع الحملة الذاهبة إلى مصر ، ولعل بصيرته قد هدته إلى أن هذا الشاب الجرىء المقدام ، التقى الورع ، سوف يرتبط قدره بقدر مصر ، وسوف يسجل صفحة من أعظم صفحات التاريخ .

وسار جيش أسد الدين إلى غزة ، فبلبيس ، فالقاهرة ، أما صلاح الدين ، فاتجه بالكتيبة التى يقودها إلى الإسكندرية .. هل فى الإسكندرية شىء يجتذب الفاتحين مثلما اجتذبت من قبل عمرو بن العاص ؟ . . لقد جاءها عمرو قبل الإسلام سائحا وتاجرًا ، فلما بدأت الفتوح الإسلامية عاودته ذكرى الإسكندرية . . فألح على عمر بن الخطاب إلحاحًا شديدًا أن يتجه إلى فتح مصر ، وتردد عمر فى هذا ترددًا طويلاً ، ثم وافق ، وولى عمرًا مهمة فتح مصر . .

ودخل صلاح الدين الإسكندرية ، وسط ترحيب أهلها الذين نقموا على الفاطميين فى الفسطاط تعاونهم مع الصليبيين . . ونقموا عليهم أنهم سادرون فى ملاذهم وملاهيهم ، معتمدين على حرس من الجند المرتزقة ، وأكثرهم من السود وبعضهم من الأرمن ! . . وكان المصريون بوجه عام لا يحبون الفاطميين . . وكان صلاح الدين سنيا ، شافعيًّا ، وكان معتزًا بهذا . .

وتولى صلاح الدين حكم الإسكندرية . . وسرعان مالاحقه الصليبيون هناك ، وحاصروا المدينة حصارًا استمر أربعة شهور . . فماذا حدث؟ . . حدث أن أهل الإسكندرية صمدوا مع صلاح الدين ، وتولوا إمداد جيشه بالمئونة ، وأخذوا يتدربون على القتال إذا ما هاجمهم الإفرنج .

ولم يستطع الإفرنج مهاجمة الإسكندرية ، وأرسلوا يطلبون الصلح . . وقبل صلاح الدين ، على شرط أن يدفع الصليبيون غرامة مقدارها خمسون ألف دينار .. وعلى شرط أهم من هذا ، وهو أن يعودوا إلى بلادهم ، ولا يقيموا بالبلاد المصرية ، ولا يتملكوا منها قرية واحدة !

وقبل الصليبيون هذه الشروط ، ورحلوا . . ولابد أن صلاح الدين قد أيقن ، منذ ذلك الوقت ، أنه إذا تولى مصر فقد انفتح أمامه الطريق إلى

أهدافه : هدف تكوين الدولة الإسلامية الكبيرة الموحدة . . وهدف هزيمة الصليبيين وإخراجهم من بلاد المسلمين . .

أيقن أن مصر هى الطريق إلى هذا وهى المفتاح . . فسوف يجد فيها كل ما يلزمه ، من قوة مادية وقوة معنوية . . فمواردها كفيلة بأن تعد جيشًا عرمرما قويا ، وأن تمده وتموّنه أمدًا طويلاً . . . أما روح أهلها التى تجلت أيام الحصار فى الإسكندرية ، ونقمتهم على حكام الفسطاط المتخاذلين المتآمرين مع الصليبيين ، فهما اللتان ستمكنانه من أن ينطلق إلى فلسطين وإلى الشام محاربا مجاهدًا ، حتى يدخل بيت المقدس .

ربما كان المصريون غير مدربين على حمل السيوف والرماح ، وخوض غمار المعارك الدامية ، فذلك لأنهم حرموا من الجندية قرونا طويلة ، كان فيها الحكام الأجانب ، من اليونان والرومان والفرس والعرب ، لا يطمئنون إلى ترك السلاح فى أيدى أهل مصر وتدريبهم على القتال . . فقصروهم على الزراعة والحرف وبناء القصور والمعابد والمساجد . . واعتمدوا على الجند الأجنبى من بنى أجناسهم أو من المرتزقة المأجورين . . إن كان هذا هو الأمر ، فإن صلاح الدين يستطيع أن يجند الجنود من بنى قومه الأكراد ، ومن بنى عمومتهم الأتراك . . ولكن المصريين سيظلون عمادًا أساسيًا فى تمويل الجيش وتزويده والقيام بما يلزمه من أعمال وخدمات . .

المهم . . أن يستقل صلاح الدين بمصر ويحكمها . . ويحشد قواها ومواردها . . ثم يخرج بجيشه إلى الشام وإلى فلسطين ، ويقيم الدولة الإسلامية الموحدة ، ويحارب الصليبيين ويهزمهم ، ويطاردهم حتى شواطئ البحر . . فيفرون إلى المراكب عائدة بفلولهم إلى البلاد التى جاءوا منها منذ قرن ونصف قرن من الزمان .

وتولى صلاح الدين أمر الوزارة فى مصر . . وأخمد فيها الفتن . . وكانت هناك فتنة كبرى ، قامت بها فرقة من السودان ، كان الفاطميون يستخدمونها حرسا . . فقضى عليهم ، وطاردهم بعشرات الآلاف إلى داخل السودان ، وبسط سلطانه على مصر كلها بما فيها بلاد النوبة !

ثم زحف بجيشه إلى الشام . . واتجه إلى دمشق . . واستقبله أهلها استقبال الأبطال . . وكان صلاح الدين رجلا حكيما بعيد النظر ، وكان يدرك بحسه أن الحماسة لا تغنى عن المصلحة ، والحماسة عاطفة قصيرة المدى ، أما المصلحة فطويلة الحبال . . فأغدق على أهل دمشق مالا جزيلا . . وأمر « بإطابة النفوس وإلغاء المكوس » ، وأبطل ما أحدثه نور الدين هناك من « القبائح والضرائب » !

ثم اتجه إلى حماة . . ثم اتجه إلى حلب . . ثم اتجه هنا وهناك ، حتى دانت له سائر بلاد الشام تقريبًا عدا موقعا أو موقعين على الساحل ظل الصليبيون متشبثين بهما . .

وأعلن نفسه ملكا على الشام . . ولقب نفسه : الناصر صلاح الدين ملك مصر والشام ، وعاد إلى مصر مكتفيا بما فتح وما حقق هذه المرة . .

وكان بعيد النظر إلى أقصى الحدود ، فقدر أن الأوروبيين لن يرضوا بما حدث فى الشام ، وسوف يغيرون اتجاه حملاتهم القادمة ، وسوف يحاولون غزو مصر والاستيلاء عليها . . فإذا تحقق لهم هذا ، فإن غزو الشام وغير الشام يصير أمرًا يسيرًا . .

رأى صلاح الدين أن يحصن مصر تحصينًا قويًّا ، وأن ينظم إدارتها تنظيما جيدًا ، وانصرف إلى هذا العمل فى الفترة القصيرة بين غزوته الأولى للشام وغزوته الثانية . . فبنى الأسوار حول القاهرة . . وبنى

التحصينات على السواحل . . وبنى القلعة الحصينة فوق المقطم . . بل وحفر الآبار لتوصيل المياه للمحاربين ، إذا اعتصموا بالقلعة ، عند نجاح العدو فى الوصول إلى القاهرة .

وكان هذا البطل العبقرى بعيد النظر ، حين توقع أن يغير الصليبيون اتجاههم ، ويسيروا إلى مصر أولا ، ثم إلى الشام وفلسطين والقدس أخيراً . . وهذا ما حدث فعلا ، ولكن بعد موت صلاح الدين ، وفى عهد خلفائه الضعاف . . ومنهم الملك الكامل ، الذى حارب الصليبيين فى بداية حكمه ، عندما نزلوا فى دمياط ، وارتدوا إلى مراكبهم مهزومين . . فلما هددوه بالعودة مرة أخرى ، انزعج وانهار . . ولم يجد وسيلة لدرء خطر الصليبيين عليه وعلى مصر إلا أن يسعى إليهم طالبا الصلح والسلام ، وأرسل إليهم الوفود تعرض عليهم ما يسمى فى هذه الأيام بمبادرة السلام . . فإذا أعطوا كلمة بألا يعودوا إلى مصر تنازل لهم عن القدس وما حول القدس . . فأعطوه كلمة جوفاء ، واستلموا القدس بلا حرب ولا عناء . . ثم عادوا بعد قليل ، فغزوا مصر بجيش جرار يقوده لويس التاسع ملك فرنسا !

وعاد صلاح الدين إلى ميدان معاركه فى الشام وفلسطين ، عن طريق غزة مرة وعن طريق العقبة مرة . . وقد قرأت أخيراً أن جيشه اتخذ منطقة طابا قاعدة انطلق منها إلى فلسطين ، وهى المنطقة التى دار عليها نزاع بين مصر وإسرائيل . .

وفى كل غزوة ، استولى صلاح الدين على عدد من مدن فلسطين والشام تاركا بيت المقدس ، وهى قريبة منه ، فى أيدى الصليبيين !

لو أن فاتحا آخر لم يؤت من الحكمة ما أوتى صلاح الدين ، لاتجه أول الأمر إلى بيت المقدس . . فهى بيت القصيد . . وهى الهدف الذى إن

أصابه جعل اسمه يدوى فى أسماع المسلمين فى شتى الأرجاء ، حتى لو انهزم فى كل معركة أخرى وارتد أمام الصليبيين فى كل ميدان !

ولكن صلاح الدين ، أراد أن يدخل القدس مثلما دخله عمر بن الخطاب من قبل . . دون أن يريق دما . . فرأى أن يحارب الصليبيين فى كل مكان آخر ، حتى يستنفد قواهم قبل أن يتجه إلى بيت المقدس . . وخاض معارك عديدة متواصلة لا مجال للحديث عنها هنا . . فدانت له معظم المدن والمواقع . . وبقيت معركة واحدة ليفتح الطريق إلى المدينة المقدسة . . فكانت معركة حطين الحاسمة ، إحدى المعارك الكبرى فى تاريخ الإسلام .

ويكفى هنا ، أن نذكر شيئًا عن أسلوب صلاح الدين فى إدارة معركة حطين ، لنتبين كيف كان القائد الحكيم يكسب معاركه المجيدة . .

تقع حطين على طريق يؤدى إلى القدس ، وسط منطقة خضراء ، فيها زروع وبحيرة وماء كثير ، ويشرف عليها تل مرتفع يستطيع الواقف عليه أن يصوب سهامه للعدو القابع فى حطين . . فهل صعد صلاح الدين بجيشه فوق التل ؟ . . لا . . بل انتشر فى الأرض المسطحة ، وسد كل الطرق أمام العدو ، إلا الطريق الذى يؤدى إلى التل المرتفع . .

وجاء جيش العدو ، بعد أن قطع شوطا طويلا وسط أرض قاحلة ، حتى أنهكه التعب والعطش . . وابتهج صلاح الدين وقال : الحمد لله ، إنهم جاءوا بأنفسهم . . ولما وجدوا الطريق مفتوحا أمامهم إلى التل ، تقدموا وأخذوا يزحفون فوق السفح ، فازدادوا تعبا وعطشا . . وقال : نبيت ليلتنا ، حتى إذا جاء الصباح أمطرنا الأعداء وابلا من النبال والسهام . . وعندئذ ، أمر صلاح الدين فأشعلت نيران فيما يغطى سفح الجبل من أشجار وأعشاب وأخشاب . . وكان هذا فى شهر يوليو

والأرض تنفث حرا وصهدا . . فاجتمع على الصليبيين حر العطش ، وحر النار، وحر الصيف اللاهب . . وعندئذ اقترب منهم جنود صلاح الدين ، وتناولوهم بالسهام والنبال . . أو كما قال أحد المؤرخين المسلمين الأدباء : « فبلغوا ، وهم أهل التثليث ، ثلاثة أقسام من نار الدنيا : نار الضرام (حريق الأعشاب) ، ونار الأوام (العطش) ، ونار السهام » . .

وأخذ المسلمون يزحفون إلى أعلى الجبل ، والصليبيون يتساقطون قتلى وأسرى . . فلما انتهت المعركة وصفها ذلك الأديب ، أبو شامة ، فى عبارته هذه : فمن شاهد القتلى قال : ما هناك أسير ؛ ومن عاين الأسرى قال : ما هناك قتيل ! » .

وسيق من نجا من الأمراء الصليبيين إلى مخيم صلاح الدين . . فاستقبلهم استقبالا حسنا ، وأجلس ملك بيت المقدس إلى جواره ، وكان الرجل يلهث من الظمأ فناوله صلاح الدين إناء مملوءًا بالماء المثلوج ، فشرب وارتوى . . ثم ناول الإناء للأمير ريجنالد ، الذى سماه العرب أرناط . . فقال صلاح الدين : لم آذن لك بإعطائه الماء ، فليس هذا بأمير ، إنما هو قاطع طريق . . ثم أخذ يذكر أرناط بما فعل ، عندما قطع الطريق على قافلة من الحجاج المسلمين ، وأسر رجالها ونساءها ، وأرسل إليه صلاح الدين يطلب إطلاق سراحهم ، فرد عليه قائلا : اطلب من « محمد » أن يخلصهم منى . . وقتل الحجيج ! . . وذكره بما فعل ، حين جرد حملة ليغير على أقدس مكانين عند المسلمين ، مكة والمدينة ، لولا أن صلاح الدين أسرع فأنزل سفنا فى البحر الأحمر بقيادة أمير البحر حسام الدين لؤلؤ ، فأسرت السفن الصليبية ومن فيها . . ثم استل صلاح الدين سيفه ، وقطع به رقبة ريجنالد هذا . . وفاء لنذره من قبل ، لئن ظفر به ليقتلنه بيده .

عندئذ ، ارتاع الأمراء الآخرون الأسرى ، فقال لهم صلاح الدين : إن الملوك لا يقتلون الملوك . . أما أرناط ، فلم يكن أميرًا ولا فارسا ، وإنما كان لصا وقاطع طريق ، فكان جزاؤه هو وأمثاله قطع رقابهم .

هذا جانب من صورة صلاح الدين فى حزمه وصرامته ، إذا كان الأمر يتعلق بمقدسات الدين وحرمات المسلمين ، كما ظهرت هذه الشدة من قبل ، عندما تولى الوزارة فى مصر ، وهو فى سن الحادية والثلاثين ، وانتزع السلطة من حرس الخليفة الفاطمى ، وكان الحرس جيشًا كبيرًا من خمسين ألفا من السود . . ومعهم فرقة من الأرمن أيضًا ! . . وقاموا بفتنة ، ليستبقوا سلطانهم وامتيازاتهم . . ففتك بهم فتكا ذريعًا ، وولت فلولهم هاربة إلى السودان . . هذا جانب من الصورة ، يقابله جانب آخر يتجلى فيه نبل الفروسية ، ويتجلى التسامح الكريم ، ويفيض بالشهامة والترفع حتى صار مضرب المثل فى هذه الصفحات السامية ، وصار محورًا لعدد من القصص التاريخية ، ومن أفلام السينما !

كان ملك إنجلترا ريتشارد ، الملقب « بقلب الأسد » ، أكبر قادة الحملة الصليبية التى جاءت فى عهد صلاح الدين ، وحدث أن أصابه المرض . . فلما علم صلاح الدين ، بعث إليه بطبيبه الخاص يداويه ! . . وذات مرة دعا ريتشارد إلى حفلة ساهرة فى مخيمه . . إذ كان يجتمع مع رجال حاشيته أحيانًا يستمعون إلى الموسيقى والغناء . . فأرسل ريتشارد أنه يريد أن يحضر حفلاً فيتعرف إلى الموسيقى الشرقية وما فيها من ضرب على الدفوف والطبول . . فدعاه صلاح الدين وأقام سرادقا كبيرًا من ثلاث خيام ، وأعد من ألوان الطعام والحلوى والفاكهة ما بهر الرجل القادم من الجزيرة الإنجليزية الفقيرة ، فى ذلك الزمان . . واستمع الملك إلى المزمار والطبل ، وإلى مغنية تعزف على آلة موسيقية . . وأمضى سهرة

ممتعة . . أو كما كتب المؤرخون : « فاستحسن ملك الإنجليز ما طعم وما سمع ، وعاد إلى معسكره مسرورًا » .

وبلغ نبله وتسامحه أرفع الدرجات ، عندما دخل بيت المقدس . .

أشاروا عليه أن يقتحم المدينة ويقتل من فيها ، ويأخذ بثأر المسلمين مما فعله الصليبيون ، عندما دخلوا القدس فجعلوها « مخاضة من الدماء» . . فأبى ، وأرسل من يبلغ المعتصمين بالمدينة أن من يريد الخروج منها ، فليخرج سالما آمنا . . وأرسل إلى من كان فيها من الأميرات يعرض أن يخرجن مكرمات مصونات . . ومعهن الأمتعة والملابس وكل ما يمكن حمله ، ولتخرج مع كل أميرة حاشيتها وخدمها ، وكلهن فى أمن واطمئنان .

وفرض دية صغيرة على من يخرج من المدينة ، قدرها عشرة دنانير على الموسرين ، ودينار على الفقراء . . وخرج أحد البطارقة ودفع عشرة دنانير، ولكنه خرج فى عربة تحمل ما فى كنيسته من صور وتحف قد تكون من ذهب وفضة . . فلم يتعرض له أحد . . أما الفقراء ، فقد علم صلاح الدين أن أربعة آلاف منهم لا يجد الواحد منهم دينارًا يدفعه ، فدفع من ماله الخاص ديتهم وخرجوا من الحصار !

وكان هؤلاء المحاصرون يرحلون إلى ما بقى فى أيدى الصليبيين من مواقع وموان لم تتم تصفيتها . . وقد استمرت هذه المواقع فترة من الزمن بعد صلاح الدين ، ولكن معركة حطين ، ثم دخول بيت المقدس ، فرضا الخاتمة المحتومة للحروب الصليبية .

وخرج من القدس من كان فيه من الشيوخ والنساء والأطفال ، ولم يتبق فيها إلا حاميتها الصغيرة ، ولم يعد هناك عائق يحول دون دخول المسلمين القدس الشريف بلا معركة وبلادم يراق ، ولكن صلاح الدين

تريث ، وأخذ يطوف ومعه بعض جنده حول المدينة خمسة أيام ، وقيل إنه كان يتخير أضعف أبوابها الخمسة ليقتحمه . . ولا أظن أن هذا كان يتطلب خمسة أيام ، وهو القائد الذى كان يأخذ المدينة المنيعة بحصونها وجنودها فى يوم وليلة !

الأرجح أنه أراد أن يختار يوما معينا لدخول القدس الشريف . . فدخل يوم ٢ أكتوبر ١١٨٧ . . وكان هذا يوم الجمعة . . وكان يوم السابع والعشرين من شهر رجب . . وهو يوم له بهاؤه وذكراه : يوم الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

دخل المسلمون القدس الشريف . . واتجه صلاح الدين إلى المسجد الأقصى فصلى ، وسبح بحمد ربه واستغفر . . ثم اتجه إلى قبة الصخرة، فأنزل الصليب المعلق فوقها . .

وأراد بعض الجند أن ينتقموا من المصلين ، وأن يغلقوا كنيسة القيامة ، وأن يحيلوها إلى مسجد للمسلمين . . فأبى صلاح الدين . . وأمر بأن تفتح أبواب الكنيسة للمسيحيين ، ووافق على أن يكون فى كل كنيسة ، من الكنائس الثلاث ، اثنان من الأساقفة . . وأعلن أن من يريد أن يأتى إلى القدس حاجا فليأت آمنا مطمئنًا .

وهكذا جدد صلاح الدين الأيوبى سيرة عمر بن الخطاب ، فدخل المسلمون القدس كما دخلوه أول مرة .

* * *

الفصل الثالث

معاهدة السلام مع الصليبيين

١ ـ هزيمة ساحقة للصليبيين فى مصر
بعد رفضهم عرضا للسلام قدمه الملك الكامل

خرج صلاح الدين من مصر بجيشه العظيم ، فقهر الصليبيين فى أرجاء فلسطين والشام ، وتوج انتصاراته فى معركة حطين ، وتقدم منها فاستعاد بيت المقدس للمسلمين ، وأقام إمبراطوريته العظيمة التى كانت مصر قاعدتها ، والقاهرة عاصمتها . .

وارتفع اسم صلاح الدين ، وارتفع معه اسم مصر ، فى العالم الإسلامى . . وصار الناصر صلاح الدين زعيم المسلمين بغير منازع ، وكون من الإمارات والدويلات الإسلامية المبعثرة دولة إسلامية عظيمة ، مصر قلبها النابض ، وتحت رايتها ينضوى المسلمون فى المشرق من عرب وفرس وأتراك وأكراد . .

لو أن صلاح الدين لم يأت إلى مصر ، فى الجيش الذى سيره عمه نور الدين محمود . . ولو أن عمه استجاب إلى رغبة الشاب فى البقاء فى الموصل ، وأعفاه من مهمة الذهاب إلى مصر . . لربما تغير وجه التاريخ ، وما حفل التاريخ بذكر شخص اسمه صلاح الدين الأيوبى !

إنما تغير وجه التاريخ تغيراً جذريًا ، لأن إرادة الله اقتضت أن يأتى صلاح الدين إلى مصر ، وأن يلتف حوله أهل مصر ، فينشئ فيها دولة

فتية ، أقامها على أنقاض الدولة الفاطمية . . ثم عبأ موارد هذه الدولة المصرية الجديدة ، وحشد قواها ، فكون منها قوة عسكرية ضخمة ، استطاعت أن تقهر الصليبيين ، وأن تقوض مملكتهم أو ممالكهم التى أقاموها فى ربوع فلسطين والشام ، وأن تنتزع منهم المدينة المقدسة التى كانت للمسلمين أولى القبلتين ، وفيها المسجد الأقصى الذى تشد إليه الرحال ، مثلما تشد إلى المسجد الحرام فى مكة ، وإلى المسجد النبوى فى المدينة .

إذن ، فقد استمد صلاح الدين قوته هذه من مصر . . وإذن فالخطر الذى دهم الصليبيين وهزمهم كان قادما عليهم من مصر . . فلابد إذن أن يفكر الصليبيون تفكيرًا جديًّا فى أن ينتقموا من مصر . . وأهم من الانتقام هو اتقاء خطر مصر . . فإذا استطاعوا أن يقهروها ويسيطروا عليها ، صار فى وسعهم أن يعودوا إلى فتح بلاد المشرق ثانية ، وأن يستولوا على بيت المقدس مرة أخرى . .

واستقر فى أذهان الصليبيين ومشاعرهم ، أن غلطتهم الكبرى فى الماضى أنهم لم يتجهوا إلى مصر أولا . . وأن يقهروها ويحكموها ، فإذا انتهوا من هذا ، اتجهوا إلى البلاد الإسلامية الأخرى ، ففتحوها دون عناء كبير ، ثم استقروا فيها وأقاموا قلاعهم وحصونهم ، وأقاموا ممالكهم وإماراتهم ، دون أن يتعرضوا لأخطار داهمة تنزل عليهم من مصر . .

وصارت صيحة الصليبيين فى أوروبا : إلى مصر أولا . . إن مصر هى الطريق إلى بيت المقدس !

وصار دعاة الصليبية فى أوروبا ، يطلقون على مصر أوصافًا تثير الغيظ أو تثير الحماسة . . فمنهم من يقول إن مصر هى رأس الأفعى . ومنهم من يقول إن مصر هى بمثابة القلب فى الجسم الإسلامى . . وكلهم

مجمعون على أن مصر هى المصدر الذى يستمد منه العالم الإسلامى قوته ومئونته وإمداداته . . .

ولم تكن هذه الحقيقة غائبة عن عقول المسلمين أيضًا ، فقد سجل مؤرخوهم المعاصرون ، أن الصليبيين تشاوروا فيما بينهم واختلفوا . . وأن عقلاءهم نصحوا بقصد الديار المصرية أولا . . وقالوا : « إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك ، وأخرج القدس والساحل من أيدى الإفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها ، فالمصلحة أن نقصد أولا مصر ونملكها ، وعندئذ لا يبقى مانع من أخذ القدس وغيرها من البلاد » . .

كلام كتبه وكرره المؤرخون المسلمون الذين عاصروا الحروب الصليبية . . مما يدل على أن الصليبيين والمسلمين ، على السواء ، كانوا مقتنعين بأن مفاتيح بيت المقدس فى القاهرة . . . وأن الاستيلاء على مصر يجب أن يسبق أية محاولة لدخول بيت المقدس . . وأن من لا يملك مصر لا يستطيع أن يستقر فى فلسطين والشام . .

* * *

وهكذا استقر رأى الصليبيين على أن يركزوا هجومهم على مصر . . وكان أكبر الدعاة إلى هذا ، والقائمين على تنفيذه ، هو ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد . فقد رأى بعينيه أن القوة التى هزمت الصليبيين قد خرجت عليهم من مصر ، وأن جيش صلاح الدين وإن كان أغلب فرسانه وعساكره من الأتراك والأكراد ، إلا أن سلاحهم وذخيرتهم ، ومئونتهم وإمداداتهم ، كانت من مصر . . وكانت لا تنفد ولا تنتهى .

ولكن كيف يهاجم الصليبيون مصر ، وقد انهارت قواعدهم وتشتت قواتهم فى فلسطين ، فلم يعودوا قادرين على أن يتقدموا جنوبا على

ساحل البحر الأبيض ، ويدخلوا مصر كما دخلوها من قبل فى عدة حملات استطلاعية يكتشفون فيها مسالك الهجوم على مصر من الشرق والشمال ؟ ورأى الصليبيون أن يكون هجومهم على مصر هجوما بحريا عبر البحر الأبيض المتوسط .

كانت القيادة المصرية تظن أن الصليبيين سيأتون من الشرق ، فإذا بهم يأتون من الشمال . . !

جاءوا فى أسطول كبير ، اشتركت فى جمع سفنه وبحارته ، موانى جنوه وبيزا والبندقية فى إيطاليا ، وتبعته سفن أخرى شاركت بها الموانى الأوروبية فى فرنسا وإسبانيا . وسرعان ما تدفق آلاف من البحارة والمقاتلين والتجار والرهبان على دمياط ، أكبر موانى مصر فى ذلك الوقت . . واحتلوا المدينة وأعملوا فى أهلها السيف ، وفجروا . .

وكان طبيعيا أن يفزع الملك العادل ، أحد أبناء صلاح الدين ، من هول ما سمع وعرف . . فأصابته نوبة ، ومات محسورًا بعد بضعة أيام .

وخلفه ابنه الكامل فى حكم مصر ، فاستهل الشاب حكمه ، وهو يرى الخطر الصليبى زاحفًا على عاصمته ، مستهدفا مملكته . . فداخله الخوف أول الأمر ، حتى أنه فكر فى أن يترك الملك ، ويهرب من مصر ، ويلجأ إلى ابن له يحكم اليمن ، فقد كان هذا نصيبه من تركة صلاح الدين .

ثم عاد الملك الكامل ، فتغلب على مشاعر الخوف ، وقرر أن يحارب . . وأن يقاوم الغزاة الذين بدءوا يستعدون للخروج من دمياط والزحف إلى القاهرة . .

وراح يستنجد بالمسلمين من حوله ، فغزو مصر هو الخطوة الأولى ،

والكبيرة ، فى غزو بلادهم جميعا ، فأرسل إلى أخيه الملك المعظم الذى يحكم الشام طالبا النجدة . . وأرسل سبعين سفيرًا إلى سائر المسلمين . . وراح كما ذكر المؤرخون : « يستنجد بأهل الإسلام على قتال الإفرنج » ، ويستحثهم على إنقاذ المسلمين ، وإغاثتهم ، ويخوفهم من تغلب الفرنج، على مصر ، فإنهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شىء من الممالك بعد هذا .

ولكن حكام المسلمين ، كانوا فى هول ما بعده هول ، وفزع ما بعده فزع ، فى تلك الآونة بالذات ! فقد حدث حدث خطير جدًّا لا تقل خطورته عن الحرب الصليبية نفسها فى أيام عنفوانها !

لقد بدأت جحافل المغول ، يقودها جنكيزخان ، تزحف من أواسط آسيا مجتاحة ما أمامها من بلاد وآفاق . . وبالسرعة التى تركض بها جياد هؤلاء المقاتلين الأشداء ، سقطت بلاد فارس ، وسقطت بخارى ، وبدأت مدن العراق تسقط . . واستولى الفزع والرعب على أهل الشرق جميعًا ، عندما ترامت إلى أسماعهم أخبار ما تنزله هذه الجحافل من تقتيل وتدمير . . وصار كل حاكم من حكام تلك البلاد مشغولا بأمره عما يجرى فى مصر ، ولا يستطيع ، حتى لو أراد ، أن يمد يد النجدة للملك الكامل فى ذلك الوقت العصيب ، حين بدأ الصليبيون يحشدون قواهم ، ويتلقون مزيدًا من الإمدادات عبر البحر ، ويتأهبون للزحف على القاهرة .

فماذا يصنع الملك الكامل تجاه هذا كله ؟

هل من وسيلة يحمى بها مصر ، ويحمى بها نفسه ، من هذه الهجمة الصليبية المخيفة ؟

وفكر وفكر . . واستشار واستخار ، ثم تراءى له ، أنه ما من سبيل

أمامه إلا أن يتصل بالصليبيين ، ويفاوضهم ويساومهم ، لعلهم يرجعون عن مصر إذا عرض عليهم عرضا سخيا . .

وبعث إليهم بعالمه وقاضيه ، الشيخ فخر الدين بن صدر الدين ، يحمل رسالة سرية إلى الإمبراطور فردريك الثانى ، الذى كان قد عاد إلى الشام وعسكر فى بعض أطرافها . . وكانت الرسالة تتضمن عرضا سخيا!

عرض الملك الكامل أن « يتنازل » للصليبيين عن بيت المقدس ، مقابل أن يخرج الصليبيون من دمياط !

وكانت بيت المقدس ، كما ذكرنا من قبل ، تحت حكم السلطان الكامل . . فقد كان نصيبه ، أو نصيب أبيه ، من إمبراطورية صلاح الدين نصيبًا كبيرًا ، يشمل مصر ويشمل القدس ، لأنهم رأوا من يحكم مصر هو أقدر من غيره على حماية القدس . .

ولم يتردد الإمبراطور فى أن يقبل هذا العرض السخى . . وقدر أن هذا نصر كبير للصليبيين ، بعد تلك الحروب الطويلة التى استمرت حتى ذلك الوقت أكثر من قرن طويل من الزمان (١٠٩٦ إلى ١٢٠٨) . . ثم إن مرحلة الانتصارات المتوالية قد ولت ، ودخلوا فى مرحلة من الهزائم والانكسارات . . فإذا جاءتهم القدس غنيمة بلا حرب ولا عناء ، فهذا هو النصر الكبير . . ولهذا فقد عاد الشيخ فخر الدين إلى الملك الكامل ، يحمل الهدايا ، ويحمل رسالة من الإمبراطور فردريك بأنه يقبل هذا العرض ، وسيبذل جهده عند الصليبيين لكى يجلوا عن دمياط ويرحلوا عن مصر . .

ولكن البابا فى روما رفض هذا العرض . . ووبخ الملك فردريك على قبوله ، وأصدر ضده قرار الحرمان ! . . لماذا ؟ لأن هذا العرض لا يكفى ، ولأن أخذ بيت المقدس وحده لا يكفى . .

وعندئذ ، اضطر الملك الكامل أن يتقدم بعرض أسخى . . فقد اتخذ لنفسه طريقا جعل الصليبيين واثقين من أنه ضعيف متهافت ، وأنه لا يجد أحدا يمد له يد المعونة والنجدة ، فراح الصليبيون يستغلونه ويبتزونه إلى أقصى الحدود .

وعرض الملك الكامل أن « يتنازل » عن القدس وعما حولها ، أى عن بيت لحم وعن الناصرة أيضًا ، ولكن هذا مازال غير كاف ، فعرض التنازل عن مدن أخرى ، نابلس . . صيدا . . عسقلان . . طبرية . . اللاذقية وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل ! !

ولكن البابا رفض كل هذا ، وهدد فردريك بأن ينزع منه مملكته فى أوروبا ، ويثير عليه رعاياه هناك ، ويجعله ذليلاً محروما فى كل مكان ، إذا قبل أن يعقد صلحا مع المسلمين .

واضطر فردريك أن يسحب موافقته على العرض الذى جاءه من الملك الكامل . . بل إنه أرسل رسالة يعتذر فيها إلى الكامل عن عدم استطاعته قبول عرضه ، ويعتذر عن عدم مساعدته فى إجلاء الصليبيين عن دمياط !

لم يبق أمام الملك الكامل إلا أن يقاوم قدر ما يستطيع . . .

وكان أخواه فى الشام ، قد سمعا بما جرى بينه وبين فردريك ، وأنه على وشك أن يبيع القدس مقابل المحافظة على ملكه فى مصر . . فأرسلا إليه يحثانه على مقاومة الصليبيين وقتالهم ، وأن يأخذ نفسه بالثبات ريثما يقدمان كل منهما على رأس كتيبة تشد أزره وتحارب فى صفه .

وتشجع الملك الكامل ، وخرج من القاهرة قاصدًا دمياط ليعيد الصليبيين الذين بدءوا يتحركون صوب القاهرة . . وكان جيش الكامل

كبير العدد ، اشترك فيه أهل الدلتا وأهل الصعيد ، مما يدل على أن المصريين كانوا راغبين ، حتى ذلك الوقت ، فى قتال الصليبيين ، حتى وإن لم تأتهم نجدة أو معونة من البلاد الإسلامية الأخرى . . ورغم أن أخوى الملك الكامل ما لبثا أن عادا إلى الشام خوفا على أملاكهما التى اقتربت منها سنابك خيول المغول !

كان الموقف ينبئ بانتصار الصليبيين ؛ فهم أكثر سلاحا وعدة ، وهم قد مرنوا على الحرب والقتال فى سلسلة طويلة من المعارك . . ولكن يشاء الله أن تخطئ القيادة الصليبية خطأ فادحا ، لأنهم لا يعرفون طبيعة الأرض المصرية ، وما تمتلئ به من قنوات الماء ، ومن بحيرات عند مصب النيل . . فما إن تقدموا قليلاً حتى وجدوا أنفسهم محاصرين فى منطقة تحيط بها المياه من ثلاثة جوانب ، البحر والنيل وبحيرة المنزلة . . وعندئذ قطع المصريون سدود المياه من كل جانب ، فتدفقت وأغرقت القوات الصليبية فى بحر من المياه . . وكان المصريون قد أغرقوا عددا من السفن فى مجرى فرع النيل ، حتى لا يبحر فيه الأعداء فى زحفهم إلى القاهرة . . وهكذا أحيط بهم من كل جانب ، وتوقفوا لا يستطيعون تقدما ولا تراجعا ، لا على اليابسة ولا فى مجرى النهر .

وبعد جهد وعناء ، شقوا طريقا وسط الأرض الموحلة ، مرتدين إلى الشاطئ ، واستقلوا سفنهم عائدين إلى بلادهم سنة ١٢٢١ . وكانت تلك خاتمة الحملة الصليبية الخامسة ، أفشل حملاتهم جميعا . .

وهكذا سلمت مصر من الغزوة الصليبية ، دون أن تفقد شيئًا من أملاكها ، ودون أن يضيع القدس الشريف من المسلمين . . وكما قال ابن الأثير : « إن الله تعالى آتى المسلمين ظفرًا لم يكن فى حسابهم ، فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد لهم بالشام ، ليعيدوا دمياط . .

فرزقهم الله إعادة دمياط ، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها » .

فهل أفاد الملك الكامل من هذا النصر الذى تم بمشيئة الله ، وبمهارة المصريين فيما رسموه من خطة لوقف زحف الصليبيين ، وما أقاموه من سدود حجزت المياه ، ثم قطعوها فتدفقت على الأعداء وأغرقتهم من كل جانب ؟

لا . . لم يفد الملك الكامل شيئًا . . بل ظل على خوفه من الصليبيين وعودتهم ، وظل يلوح لهم برغبته فى الصلح والسلام ، وظل يلح عليهم أن يأخذوا بيت المقدس مقابل أن يتركوه آمنا ومطمئنًا . . وأخيرًا قبل فردريك الثانى عرض الملك الكامل ، وتسلم منه القدس !

٢ ـ الصليبيون فى شقاق وانقسام والمسلمون فى حزن على القدس

الصليبيون انقسموا ثلاث فرق . .

فريق وراء الإمبراطور فردريك الثانى ، يرى أن يقبل العرض السخى الذى قدمه الملك الكامل ، فيأخذ بيت المقدس ويقيم فيه المملكة الصليبية مرة أخرى ، مقابل جلاء الصليبيين عن مدينة دمياط . . وقالوا إننا لم نزحف من أوروبا إلى الشرق لنأخذ دمياط ، ولا لنأخذ مصر ، وإنما جئنا لنفتح بيت المقدس ، ونخرج منها المسلمين ، ونقيم فيها مملكة مسيحية يأتى إليها الحجاج المسيحيون آمنين . . وهاهم أولاء المسلمون يعرضون علينا ما تمنيناه ، بلا حرب ودون عناء .

فريق آخر يتبع البابا (جريجوريوس) ، ويرى أن بيت المقدس غنيمة طيبة ، ولكنها لا تكفى . . فأين بيت لحم ؟ وأين الناصرة ؟ وأين هذه الأماكن المقدسة التى ولد فيها المسيح ، وعاش وعاشت فيها مريم ، وبشر فيها بالمسيحية ، ووقف إلى جانب المضطهدين ، وواجه طغيان الرومان وغدر اليهود ؟ . . . إنا لا نقبل صلحا مع المسلمين ، إلا إذا أخذنا بيت المقدس وكل ما حوله من أماكن مقدسة ، ومن بلاد وثغور تؤمن طريق الحجيج إلى هذه الأماكن المقدسة .

وفريق ثالث أكثر مغالاة من فريق البابا .. إنه يرى أن كرامة المسيحية ألا يؤخذ بيت المقدس عن طريق « تنازل » المسلمين ، بل ينبغى أن يؤخذ بحد السيف .. فلما جاءت جموع الصليبيين زحفا من أوروبا ، وما حاربت وقاتلت ، فمات منهم الآلاف والآلاف ، لكى يقفوا فيتصدق عليهم المسلمون ببيت المقدس .. إنما جاءوا مدججين بالسلاح ، وأقدموا على الموت فى معارك لا تنتهى ، لكى يروعوا هؤلاء المسلمين .. ولينتزعوا منهم كل ما للمسيحيين من مقدسات .. وليضعوا حدًّا لا يتعداه المسلمون أبدًا .

* * *

أما المسلمون فكانوا فى هم وغم ..

إنهم يتهامسون ، فيتسامعون أن سلطانهم الملك الكامل يهم بأن يفعل ما لم يفعله أحد من المسلمين من قبل ... وأنه يفاوض الصليبيين سرًّا ، ويعرض عليهم أن يترك لهم بيت المقدس ! .. هل حارب صلاح الدين وحاربنا من ورائه ، وضحينا ما ضحينا من دمائنا وأقواتنا لكى نسترد بيت المقدس ، ثم يأتى علينا هذا اليوم فنتركه غنيمة رخيصة للصليبيين ؟ هل حاربنا وجاهدنا ، حتى أقام صلاح الدين إمبراطورية إسلامية تشمل مصر والشام وفلسطين والحجاز واليمن ، ثم ورثها أبناؤه وأبناء إخوته فأصاب منها الملك الكامل مصر والقدس ، ثم تخر قوانا وتنهار عزيمتنا ، فلا نستطيع أن ندافع عن بلادنا إلا بالتنازل عن القدس الشريف ؟

وواقع الأمر حينذاك أن المسلمين قد خارت قواهم ، وانهارت عزيمتهم فعلا ... وصاروا جميعا فى المشرق والمغرب فى حال تدعو إلى الرثاء ...

فأما المسلمون فى المشرق ، فهم الآن أكثر فزعا ورعبا ، وأكثر تشتتا وفرقة ، مما كانوا فى إبان الحرب الصليبية وفى أوج انتصارها . . فقط هبط على المسلمين من هم أشد شراسة وفتكا . . . هبطت عليهم جحافل المغول ، وكأنها عواصف وأعاصير تجتاح وتقتلع كل ما أمامها . . وسقط المسلمون آلافا وعشرات الآلاف ، تحت سنابك خيل المغول الذين أعملوا سيوفهم فى الرقاب ، ثم دمروا وخربوا وأحرقوا الأخضر واليابس جميعا . . . ولم يبق فى ذلك العالم الإسلامى من يستطيع أن يتصدى لهؤلاء الغزاة المكتسحين ، بل راح حكام المسلمين وأمراؤهم يرتمون أمام جحافل المغول ، مثلما كانوا يرتمون من قبل أمام جموع الصليبيين ، ويسلمون لهم بلادهم وديارهم اتقاء لشرهم والتماسا لمرضاتهم . .

فأنى لهم ، وهذه حالهم ، أن يتقدموا بالنجدة إلى الملك الكامل إذا ما هم الصليبيون بغزو مصر كما فعلوا من قبل ؟

وأما المسلمون فى مصر ، وهم مناط الأمل فى العالم الإسلامى ، فقد أخذوا يشعرون ، ويقولون أيضا فيما بينهم ، إنهم حاربوا الصليبيين أكثر مما حاربهم أى قوم آخرين . . وإن بلادهم حملت من أعباء مقاومة الصليبيين ومحاربتهم أكثر مما حملته سائر البلاد الإسلامية الأخرى . . فهم الذين أعدوا جيش صلاح الدين ، ومونوا حروبه الطويلة المتلاحقة . . وقد أرهقتهم هذه الحروب وأفقرتهم ، حتى صارت مصر فى السنوات التى أعقبت صلاح الدين تعانى من مجاعة مخيفة ، بعد أن كانت هى أغنى بلاد المسلمين وأكثرها خيرًا . . .

أين أيامهم الآن من أيامهم فى عصر الفاطميين ؟ حين لم تكن هناك حرب ولا تقشف ولا حرمان . . وإنما كان هناك الترف والبذخ يعيش فيه الأغنياء ، ويفيض خيره على الفقراء ، فنعم فيه الناس كلهم بملذات

الحياة . . وخاصة بملذات الطعام . . فقد أكثروا منه وافتنوا فيه ، حتى صارت صنوف الطعام والحلوى جزءًا من التراث الفاطمى الذى ما يزال باقيا فى مصر حتى الآن .

أما الآن ، وبعد حروب صلاح الدين الأيوبى وانتصاراته العظيمة ، فإن مصر تعيش فى شظف بلغ حد الجوع . . بل كانت هناك مجاعة فعلا . . مجاعة ، تحدث عنها المؤرخون حديثا يثير فينا شعورًا بالدهشة وبالألم حتى الآن . . رغم أنه انقضى عليها قرون وقرون . .

لقد جاء المؤرخ الرحالة عبد اللطيف البغدادى إلى مصر وأقام فيها عدة سنوات ، حتى غادرها سنة ١٢٠٥ ، أى قرابة الأيام التى رأى فيها الملك الكامل أن يستسلم للصليبيين . . فكتب وصفا مفزعًا مروعًا لما كان عليه حال الناس فى مصر . . نذكر من هذا الوصف أجزاء ، ونغفل أجزاء أخرى أكثر بشاعة :

« وقد يئس الناس من زيادة النيل ، وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد ، وأشقى أهلها البلاء ، فهربوا من خوف الجوع . .

« وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن ، وتفرقوا فى البلاد أيدى سبأ ، ومزقوا كل ممزق .

« ودخل إلى القاهرة منهم خلق عظيم ، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت . . .

« واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث . . ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بنى آدم ، وكثيرًا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون ، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل » .

ثم يروى البغدادى حوادث كثيرة مروعة شاهدها بنفسه عن الأوبئة التى تفشت فى الناس ، فصارت شوارع القاهرة ورحابها أشبه بمقابر مكشوفة تتكدس فيها جثث الموتى . . وفى الريف ، « فإن المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمة (نار الطهى أو الخبز) ويجد البيوت مفتوحة وأهلها موتى . . » .

ويقول البغدادى ، الذى كان مدققا فى أخباره ، إن الجارية الحسناء كانت تعرض بدراهم معدودة . . وقد عرض عليه جاريتان مراهقتان بدينار واحد ، وإن امرأة سألته أن يشترى ابنتها ، وكانت دون البلوغ بخمسة دراهم . . ثم يقول : « إن النساء والولدان من مصر قد وصل سبيهم إلى العراق وأعماق خراسان » .

صورة مفزعة لا نريد أن نمضى فيها أكثر من ذلك ، فهى من بشاعتها ما تزال تثير فينا الغثيان . .

وهكذا كانت الصورة أمام الملك الكامل قاتمة من جميع الجوانب . . .

وزاد الصورة قتاما ، أن الصليبيين استطاعوا أن يستجمعوا قواهم ويستردوا بعض مدن الشام ، وجاء الملك فريدريك الثانى من أوروبا مصمما العزم على أن يسترد بيت المقدس . . أى ينتزعه من الملك الكامل، الذى كان قد ورث ، فيما ورث من إمبراطورية صلاح الدين ، حكم مصر وحكم فلسطين . .

وقد جاء أولئك الصليبيون الجدد لا بدافع الغيرة الدينية ، وإنما يدفعهم شعور عنيف بالرغبة فى الأخذ بالثأر من هزيمتهم فى حطين ، وانهيار معاقلهم وإماراتهم أمام صلاح الدين . . ورغبة الإنسان فى الانتقام من عدوه ، إذا استبدت بمشاعره ، دفعته إلى القتل دون أن يبالى

بأى شىء . . وقدتصل به إلى حد الهوس والجنون . . والإنجليز يقولون فى كلامهم الجارى : الحياة جميلة ، ولكن الانتقام أجمل !

وفضلا عن هذا كله ، فقد أخذ الصليبيون فى أوروبا يشنون على الملك الكامل « حرب أعصاب » ، كما يجرى التعبير الحديث . . فهناك إشاعات بأن أساطيل تعد فى موانى أوروبا ، وسوف تحمل الآلاف ، متجهة إلى شواطئ مصر . . وإنهم قد عقدوا العزم هذه المرة على ألا يتوقفوا دون القاهرة . . . ودون أن يقع الملك الكامل أمامهم مقتولا ، أو فى أيديهم أسيرًا . . .

فماذا يصنع الملك الكامل تجاه هذا كله ؟

فكر وفكر . . واستشار واستخار . . . وقرر أن يغامر ويجازف . . فيقوم بمبادرة سلام مع الصليبيين ! . . ويعقد صلحا نهائيًّا مع الصليبيين ، وليكن ما يكون . . .

ويروى المقريزى ما حدث فيقول : إن الملك الكامل أرسل رجاله ، «فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج » . . «فاستعظم المسلمون ذلك ، وأكبروه ، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه » . . « فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل ، وأذنوا على بابه فى غير وقت الأذان » .

ويمضى المقريزى فيقول : « فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء » ، واشتد الإنكار على الملك الكامل ، « وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار » .

وأقيمت المآتم فى المدن الإسلامية ، وألقيت فيها قصائد الشعر فى رثاء

القدس . . . أو كما يقول أحد المؤرخين المسلمين : « قامت القيامة فى جميع بلاد الإسلام ، واشتدت العظايم بحيث إنه أقيمت المآتم » .

وأراد السلطان الكامل أن يهون من أمر تسليم القدس للصليبيين ، ويخفف من وقع هذا على المسلمين ، فأخذ أنصاره ودعاته يدبجون الأقوال ويبثونها بين الناس دفاعًا عما فعل . . وكان للملك الكامل حاشية كبيرة من الأدباء والشعراء والمغنين والظرفاء . . وكان يسهر معهم طويلاً ويغدق عليهم كثيرًا . . وكان له أيضًا حاشية من الشيوخ والفقهاء يتبرك بهم . ويتبركون به . . بل كانوا ينامون قريبًا من مضجعه، فقد يحتاج إلى أن يستشير أحدا منهم فى ساعة مظلمة من الليل . . .

وراحت تلك الحاشية من الأدباء ، تقوم بعملية الدعاية ، وتبرر ما فعله الملك الكامل ، ونقول إن ما تنازل عنه للصليبيين لم يكن إلا «كنائس وأديارًا خرابًا . . والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم . . ووالى المسلمين يتحكم فى الأعمال والضياع » .

ودخل فردريك القدس ، واستلمها من القاضى شمس الدين . . وفى يوم الأحد ١٨ مارس ١٢٢٩ ، دخل كنيسة القيامة وتوج نفسه ملكا على القدس . . . ثم ذهب إلى زيارة المسجد الأقصى ، فلم يسمع أذان المسلمين للصلاة . . . . فسأل . . فقيل له إن الملك الكامل أمر بألا يؤذن للصلاة طوال إقامة الإمبراطور فى القدس ، مجاملة له وإكرامًا . . فقال فردريك « لقد كان أكبر غرضى فى المبيت فى القدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم بالليل ! » .

وهكذا ، حقق الإمبراطور فردريك نصرًا ، فشل دونه أعظم ملوك الصليبيين ، ريتشارد قلب الأسد . . ولم يعد البابا قادرًا على الاستمرار فى إعلان سخطه على فردريك الذى صار بطلاً فى أعين الأوروبيين . .

فصفح عنه ! ورضى عليه ! . . وقال إن فيما حصل عليه فردريك مزايا لا يستهان بها . . .

فهل كان الخلاف بين البابا وبين الإمبراطور ، مسرحية مثلها الجانبان؟ هل كان تعنت البابا واتهامه فردريك بالتساهل والتفريط مع المسلمين تمثيلاً ؟

وهل كان إصرار البابا على أن يأخذ أكثر ما يمكن ، وتظاهر فردريك بقبول « أقل » ما يمكن . . مسرحية أوهما بها الملك الكامل أنه إذا لم يستجب إلى مطالب المعتدلين ، فسوف يأتى الغلاة المتشددون ، فيستأنفون القتال . . ويعودون إلى غزو مصر . . وهو الأمر الذى يريد العادل أن يتفاداه مهما كان الثمن الذى يدفعه المسلمون ؟

وبعد ، فماذا كسب الملك العادل من « تنازله » عن بيت المقدس ؟ !

* * *

٣ ـ طويت صفحة حروب الصليبيين ليعودوا إلى الشرق بعد ستة قرون !

ماذا كسب الملك العادل من « تنازله » للصليبيين عن بيت المقدس؟!

هل كف أيدى الصليبيين عن بلاده ؟ وهل حمى مصر من الهجوم الصليبى ، وهو الذى كان يرتعد عندما كان يسمع أن الصليبيين يستعدون لغزو مصر مرة أخرى ؟

هل استقر السلام بين الصليبيين والمسلمين ؟ أو حتى بين الصليبيين والمصريين ؟ وهل كانت المعركة التى دارت فى دمياط آخر الحروب وبداية السلام ؟

هل استتب الأمر له ؟ فحمى عرش الأسرة الأيوبية ، واستقر أولاده فى حكم مصر ، بعد أن غسل يديه من مشكلة القدس ومشاكل المسلمين ، وصار صديقًا للإمبراطور فردريك يتبادل معه الرسائل والهدايا ؟

لقد عاش الملك الكامل تسع سنوات ، بعد أن عقد صلح يافا مع الصليبيين ، وتنازل لهم فيه عن بيت المقدس وما حولها من مدن ، منها بيت لحم والناصرة وصيدا وبلاد أخرى . . ولا ندرى هل عاش هذه السنوات رضى النفسى مطمئن الضمير إلى ما فعل . . أم هل أحس بأنه

فرط فى حق نفسه ، وحق دينه ، وحق مصر ، كلما ترامى إلى سمعه أن الصليبيين ما زالوا يفكرون فى غزو مصر والانتقام من هزيمتهم السابقة فى دمياط . . وتنفيذًا للخطة التى استقر عليها رأيهم ، وهى أن يضربوا مصر أولا ، وعندئذ تنفتح أمامهم أبواب فلسطين ، والشام والمشرق الإسلامى كله ؟

ما نعرفه من كتب التاريخ والأدب ، أن الملك العادل فقد هيبته عند الناس . . . وأنهم راحوا يتهامسون عن حياته الخاصة ، وعن علاقته بمغنية اسمها « عجيبة » . .

ثم ارتفع الهمس ، وصار حديثًا شائعًا بين الناس ، حتى أن قاضى القضاة فى مصر أصدر حكما بأن شهادة الملك الكامل لا تقبل !

كانت أمام القاضى قضية ما . . وكانت تهم الملك بصفة خاصة . . فجاء شاهدًا ، فقال القاضى شرف الدين محمد بن عبد الله الشافعى . إن السلطان يأمر ، ولا يشهد . .

وأصر الملك على الإدلاء بشهادته ، وسأل القاضى : هل تقبل شهادتى أم لا ؟ فرد عليه القاضى بكل شجاعة : لا . . لا أقبل شهادتك . . وكيف أقبلك و « عجيبة » تطلع إليك بجنكها (لباس الرقص) ، كل ليلة ، وتنزل ثانى يوم بكرة ، وهى تتمايل . . وينزل فلان وفلان من عندك أبخس مما نزلت « عجيبة » ؟ ! . .

وغضب الملك واهتاج . . وصاح بالقاضى : ياكنواخ ! . . وهى كلمة شتم . . فقال القاضى : ما فى شريعة الله كنواخ ! . . اشهدوا أنى قد عزلت نفسى . . ثم نهض القاضى من مجلسه واعتزل منصب القضاء . .

وجاءت حاشية الملك مرتعدة ، وقالت للملك الكامل إن الأمر سوف يبلغ الخليفة فى بغداد الذى ما تزال له السلطة الشرعية فى مصر ، يخطب له فى صلاة الجمعة ، ويعين قاضى القضاة ، ويخلع على سلطان مصر الصفة الشرعية . . ونصحوا الملك أن يترضى القاضى ويعتذر إليه . . واستمع الملك الكامل إلى رأى الحاشية كما كان يفعل دائما .

ولكن مفتى الديار المصرية ، واسمه تاج الدين بن تقى الدين السبكى ، قد أفتى بأن الفسق لا يعزل السلطان !

أى أن المفتى كان يعلم ما يشيع بين الناس جميعا ، عن أمور السلطان . . ولكنه كان يرى أن الفسق ليس سببا كافيا لعزل السلطان . . ولم يبين سماحته فى فتواه : ما هو السبب الذى من أجله يجوز عزل السلطان ، ما دام الإسلام يجيز فى نظره بقاء السلطان الفاسق ؟!

أما أن السلطان يأمر ولا يشهد ، فلا أظن أن هذا فى شريعة الإسلام الذى حرم كتمان الشهادة . . ولم تقل الشريعة إن الكتمان حرام إلا على الملوك والسلاطين ! . . ولكن ما زالت قوانين الدول الإسلامية ، أو بعضها ، تنص على أن رئيس الدولة معفى من أداء الشهادة أمام القضاء، حتى لو طلب أحد المتقاضين الاستشهاد به .

تلك صورة تدل على ما صار إليه حال الملك الكامل ، بين رعاياه وبين الصادقين من علماء الدين . . نزلت هيبته ، وتضعضع ملكه . . بل كانت هذه هى بداية النهاية لحكم الدولة الأيوبية فى مصر ، فما هى إلا سنوات قلائل ، حتى زال الملك عن الأيوبيين ، وورثهم المماليك .

ومات الملك فى سنة ١٢٣٩ ، ودفن فى ضريح أنيق مزخرف مازال قائماً فى حى الخليفة ، أحد أحياء القاهرة القديمة . . وكان هذا الضريح هو آخر ما بقى من الرجل ، الذى كان الوريث الأكبر من إمبراطورية صلاح الدين الأيوبى ، فبدد الميراث العظيم هباء .

ولكن الأدباء والشعراء والظرفاء ، الذين كان الملك الكامل يغدق عليهم المال والعطايا ، فيغدقون عليه الكلام مديحا وتعظيماً وتمويها . . قد خجلوا من أن ينقلبوا عليه بعد وفاته بالسب والهجاء ، وظل بعضهم يطلق عليه أوصافا طيبة ، ومنها أوصاف الورع والتقوى ، والمهابة والوقار. . فالكاتب المؤرخ أبو الفداء مثلا ، قال : كان « ملكا جليلاً مهيبا ، حازما حسن التدبير » . . ولكن لم يقدم للناس دليلاً على التقى والورع ، بينما رائحة المغنية « عجيبة » ومثيلاتها تفوح بين الناس . . أما المقريزى فقد أفاض فى الحديث عن حب الملك الكامل للأدب والأدباء ، والعلم والعلماء ، وعن مراسلاته مع الملك فردريك ، الذى كان هو أيضًا محبا للأدب والعلم . . وشتان ما بين علم كان فردريك يحبه فى عصر بدأت فيه تباشير عصر النهضة الأوروبية ، وعلم يحبه الملك الكامل فى عصر مظلم تدهورت فيه الثقافة الإسلامية إلى درك بعيد . .

ولم يكن مديح الأدباء والشعراء والظرفاء للملك الكامل ، عند وفاته وبعدها ، دليل وفائهم . . وإنما هى عادة النفاق ، تمكنت منهم فلا يستطيعون الخلاص منها . . وفى نظر هذا النوع من الناس ، أن المضى فى طريق الخطأ والضلال ، خير من العودة إلى الحق .

وما يزال الكتاب المسيحيون يثنون على الملك الكامل ، الذى تنازل عن القدس . . بل إن كاتبا كبيرًا مثل دورانت مؤلف موسوعة « قصة

الحضارة » . . يذكر أن أعظم شخصيتين إسلاميتين فى تاريخ الحروب الصليبية ، هما صلاح الدين . . والملك الكامل !

أما مصر ، فقد ظن حكامها أنهم أمنوا جانب الصليبيين ، وصاروا أصدقاءهم وحلفاءهم ، لكنهم ما لبثوا أن رأوا غزوة صليبية جديدة على بلادهم . . وكانت غزوة أشرس وأعنف من الغزوة الأولى على دمياط . . فقد كانت غزوة انتقام ، أعد لها الأوروبيون أسطولا كبيرا وجيشا كبيرا ، وكان على رأسها ملك فرنسا لويس التاسع ، الذى كان معروفا بتدينه وتعصبه .

جاء الملك لويس ، ومعه جميع نبلاء وفرسان فرنسا . . وجاء معه إخوته الثلاثة ، وجاءت معه زوجته التى كانت أكثر منه تدينا ، واستعدادًا للتضحية بحياتها . وقد نذر لويس نفسه للموت فى سبيل دينه ، فقد أصيب بمرض عضال ، فنذر إن شفى منه ليحاربن فى سبيل الصليب ، فأعد الجيش العرم الذى خرجت فرنسا كلها تودع فرسانه وجنوده ، وحملهم أسطول هائل ، تتقدمه ثلاث سفن تحمل الملك والملكة وعددًا من المحاربين الشجعان . . ورسا الأسطول عند قبرص ، فاحتفى به الناس ، وانضمت إليه جموع أخرى تريد غزو مصر . . ثم لحقت بالأسطول الفرنسى سفن من إنجلترا تحمل كوكبة من الفرسان الإنجليز .

* * *

وعلم حاكم مصر ، الصالح أيوب ، الذى خلف أباه الملك الكامل، بأن الصليبيين يحتشدون فى قبرص . . وقدر أنهم سينزلون دمياط كما فعل أسلافهم من قبل . . فحشد جيشه تجاه المدينة ، وقرر أن يحارب حربا جادة . . فقد جرب أبوه مهادنة الصليبيين ، حتى بلغ به

الأمر حد التفريط . . وها هى ذى النتيجة . . فلابد هذه المرة من حرب وقتال يلقى على الصليبيين درسا لم يتعلموه من سياسة المهادنة والمصالحة .

كان الصالح أيوب نقيض أبيه الملك الكامل ، كان شجاعا جريئًا ، وكان حازمًا إلى درجة القسوة ، وكان لا يتردد فى الإطاحة برءوس من يخالفه من الجنود . . وقد أطاح برءوس الكثير منهم جماعات جماعات ، ولعله ورث هذه الصفات من أمه السودانية ، وكان لون بشرته أقرب إلى السواد ، أما جيشه ، فكان كله من المماليك ذوى البشرة البيضاء . .

ولم ينخلع قلب الصالح أيوب ، عندما تلقى رسالة تهديد من لويس التاسع ، وهو ما يزال فى عرض البحر بعيدًا عن ساحل دمياط . . قال ملك فرنسا فى رسالته : « لو حلفت لى بكل الأيمان . . ولو دخلت على القسوس والرهبان ، تحمل قدامى الشمع طاعة للصلبان ، ماردنى هذا عن الوصول إليك ، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر تحت قيادتى يملئون السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم قادمون عليك بأسياف القضاء » .

ويذكر الملك لويس عدوه ، الصالح أيوب ، بما يجرى فى ذلك الوقت فى الأندلس . . فيقول له إن المسلمين هناك « يحملون إلينا الهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر . . ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء . . ونستأثر البنات ونخلى منهم الديار » . .

ولكن الصالح أيوب لم ينزعج ، ورد عليه برسالة مماثلة ذكر فيها السيوف والرماح ، والجيوش والحصون . ونزل الجيش الصليبى قريبا من دمياط ، فما إن سمع أهلها بذلك ، حتى فزعوا وارتعبوا ، فتركوا ديارهم

وولوا هاربين ، لا يحملون معهم شيئًا مما كانوا يختزنون فى بيوتهم ، من أقوات وأسلحة وعتاد . . بل فر حراس المدينة ، وتركوها مفتوحة الأبواب . . فدخلها الصليبيون يوم ٦ يونيو ١٢٤٩ دون قتال ، واستولوا على ما فيها « صفوا عفوا » كما يقول المقريزى .

إن أهل دمياط هؤلاء ، قاوموا الصليبيين فى الغزوة الأولى أربعة عشر شهرًا ، وجرت بينهم وبين الغزاة معارك ، كبدوا فيها العدو خسائر جسيمة فى الأرواح والعتاد . . فهل كانت فترة الصلح والسلام ، الذى دخل فيه الملك الكامل ، فترة استرخاء وتواكل ، أوهمت الناس بأن عهد الحروب قد انتهى ، وأن السلام قد استتب واستقر ، فلم يعدوا أنفسهم لمباغتة كتلك التى حلت بهم وهم نيام ؟

واستولى الصليبيون على دمياط ، وحولوا المسجد إلى كنيسة ، وأقاموا بطريركا فرنسيا للمدينة . . وبدءوا يستعدون للزحف على القاهرة بعد أن رفض لويس فكرة الزحف على الإسكندرية والاستيلاء عليها أولا . .

كان هذا فى شهر يونيو ، وقد اقترب فيضان النيل . . والملك يعرف جيدًا أن الفيضان هو الذى هزمهم فى المرة الأولى ، عندما فتح المصريون السدود على فرع النيل والبحر الصغير ، وحاصرتهم المياه من كل جانب . وقرر أن ينتظر ، حتى ينتهى موسم الفيضان ، ثم يبدأ زحفه إلى القاهرة . .

وفى اليوم الذى بدأ فيه الزحف ، مات الملك الصالح أيوب . . ولكن زوجته شجرة الدر ، تلك المرأة الجريئة التى انحدرت من أصل تركى ، أخفت خبر موته ، حتى لا ينشغل الجيش بهذا عن المعركة التى يجب أن يخوضها بكل قواه . .

وكانت معركة أو سلسلة من المعارك البرية والبحرية ، فقد دخل الصليبيون بسفنهم فى النيل ، فجاء المصريون بسفن كثيرة كانت تتصيد سفن الغزاة ، وتفرقها أو تأسرها . . وخسر الصليبيون ثمانين سفينة ، خسروا ما عليها من مئونة وسلاح . . وحارب الجانبان بكل بسالة وقوة . .

وظهر بين المسلمين فارس عظيم . . ولم يكن محاربا باسلا فحسب ، بل كان قائدا يضع الخطة الحربية المحكمة ، ويدير المعركة ، ويقود الجنود . وكانت هذه بداية تاريخه الفذ ، الذى حفل بأمجاد من البطولة ، مثلما حفل أيضا بكثير من القسوة والشراسة الغاشمة . . هذا هو المملوك « الظاهر بيبرس » ، الذى صار فيما بعد حاكم مصر ، وحاكم الشام ، والبطل الذى صد موجات المغول . .

وتلاحم الجيشان . . الجيش الصليبى يقوده الملك لويس ، والجيش المصرى يقوده الظاهر بيبرس . . وبلغ القتال ذروته عند فارسكور ، حيث حلت هزيمة ساحقة بالصليبيين ، ووقع لويس التاسع أسيرًا ، فاقتادوه إلى بيت الشيخ فخر الدين بن لقمان فى المنصورة . . أما الجيش الصليبى ، فقد وقع كله بين قتلى وأسرى !

وتفاوض المنتصر والمنهزم . . وفرض المسلمون شروطهم ، وهى جلاء الصليبيين عن دمياط ، وخروجهم من مصر جميعا ، ودفع دية باهظة من الذهب ، مقابل إطلاق سراح الملك لويس ومن معه من الأسرى . .

وكانت زوجة الملك لويس فى أثناء ذلك فى دمياط . . وكانت حاملا ووضعت ابنا فى اليوم الذى أسر فيه أبوه . . ولكنها لم تفقد شجاعتها فى أية لحظة . . بل جمعت حامية المدينة ، عندما خشيت أن يسرى إليهم

الخوف والوهن . . وناشدتهم أن يتماسكوا ويرابطوا ، فلم تبق فى أيدى الصليبيين إلا مدينة دمياط ، يفتدون بها ملكهم وأسراهم . .

وكان لهذا الملك خادم بلغ سن الثمانين . . وكان من قبل فارسا مقاتلا . . فجاءت به ، وجثت أمامه على ركبتيها ، وقالت له : أتوسل إليك إذا دخل المسلمون مدينة دمياط أن تأتى بسيفك وتقطع رقبتى ! . . قال لها الرجل المسن : سوف أفعل . . وقبل أن تحدثينى بهذا ، كنت قد قررت أن أفعل أى شىء إلا أن تقعى أسيرة فى أيدى الأعداء . .

وقبل لويس التاسع شروط التسليم . . وخرج الصليبيون أولا من دمياط ، ونزحوا عن مصر . . وبعد ذلك أطلق الظاهر بيبرس سراح الملك الأسير ، فاستقل سفينة اتجهت به إلى عكا . . التى كانت من بقايا المراكز الصليبية فى الشام . .

وبعد سنوات قليلة خرج الظاهر بيبرس من مصر بجيش عرمرم ، يضم أربعين ألفا من الفرسان ومائة ألف من المشاة ، وزحف إلى الشام ، فصفى جيوب الصليبيين فيها ، حتى سقطت جميعا . .

وأخذ الصليبيون يرحلون عن بلاد المسلمين ، ثم طويت صفحة الحروب الصليبية التى دامت قرونين . . وسجل هذا التاريخ الطويل أمجاد أبطال من الجانبين ، وكان أعظم الأبطال جميعا ، وأبقاهم ذكرًا على مدى التاريخ ، هو صلاح الدين الأيوبى ، الذى أقام من أنقاض الخلافة العباسية فى بغداد ، وأنقاض الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، إمبراطورية إسلامية عظيمة ، تضم مصر والشام وفلسطين والعراق والحجاز واليمن ، وماوراءها من جبال طوروس فى الشمال إلى بلاد النوبة والسودان فى الجنوب .

وكان من أغرب الشخصيات ، التى أظهرتها الحروب الصليبية

وتقلباتها ، الملك الكامل الأيوبى . . الوريث الأكبر فى مملكة صلاح الدين . . وورث منها سلطان مصر ، وورث بيت المقدس . . وحارب الصليبيين حين اضطر إلى القتال ، فلما جاءه النصر عليهم ازداد خوفا منهم ! . . وسعى إليهم ، وقدم عرضا لا يقدمه إلا المهزوم المسحوق . . وتنازل لهم عن القدس الشريف ، مقابل وعد بذلوه له ، بألا يحاربوه فى مصر بعد اليوم . . فأخذوا القدس ورفعوا عليه الصليب من جديد . . وبعد تسع سنوات ، عادوا فغزوا مصر من جديد .

وكانت قصة الملك وعواقبها عبرة من عبر التاريخ . . فقد جرت وراءها خاتمة هزيلة لانتصارات الأسرة الأيوبية وأمجادها . . وكان حكم التاريخ عليه حكما عادلا ، فلم يحتفظ له إلا بصفحة باهتة ومشوبة بالسواد .

وانتهت تلك الحروب الصليبية التى دامت قرنين من الزمان .

بدأت على وجه التحديد سنة ١٠٩٦ ، حين خرجوا من أوروبا ، ووصلوا الشرق ، واستولوا بعد ثلاث سنوات على بيت المقدس ، وأقاموا مملكة القدس الصليبية .

وانتهت عمليا فى سنة ١١٨٧ ، فى معركة حطين ، التى قضى فيها صلاح الدين على قوة الصليبيين . . ثم استرد بيت المقدس .

ولكن فلول الصليبيين فى الشام ، وما جاءها من إمدادات ، ثم قواتهم التى غزت مصر مرتين ، أطالت أمد الحرب مائة سنة أخرى إلى أن نزحوا عن الشرق نهائيًا سنة ١٢٩١ .

ثم مضت ستة قرون ، وأخذ الأوروبيون يعودون إلى الشرق فى صورة جديدة ، هى صورة الاستعمار الأوروبى . .

وعندما شبت الحرب العالمية الأولى ، عادوا بجيوش الاحتلال . . ودخل الإنجليز بيت المقدس سنة ١٩١٤ ، وحمل الإنجليز معهم نذر الغزوة الصهيونية ومقدماتها . وبعد ثلاث سنوات ، أصدرت حكومتهم وعد بلفور تتعهد فيه بمساعدة اليهود على إقامة وطن قومى لهم فى فلسطين . . ثم فتح الإنجليز أبواب فلسطين للهجرة اليهودية . . ثم تم الغزو الصهيونى للعالم العربى .

ودخل الجيش الفرنسى دمشق . . وكان أول ما فعله قائد الجيش، أن ذهب إلى قبر صلاح الدين الأيوبى ، ووقف أمامه ، وقال : « لقد عدنا . . اسمعنى ياصلاح الدين . . لقدعدنا » .

الفصل الرابع

الهجمة الصهيونية

عاش اليهود فى القدس سبعين سنة
وعاش فيها العرب أربعة آلاف سنة !

لو كان فى مدينة القدس ، وقت الفتح الإسلامى ، معابد أو هياكل أو آثار يهودية ، لما كان هناك ما يدعو جنرالات إسرائيل ، أمثال « موشى ديان » و « يادين » و « وايزمان » و « هرتزوج » إلى أن يتحولوا إلى علماء آثار ، وهواة حفريات . . ينقبون تحت الأرض ، فى القدس وما حولها ، يفتشون عن معابد يهودية قديمة ، أو هياكل يهودية بائدة . . دون أن نسمع حتى الآن أنهم وجدوا شيئًا !

لو كان فى القدس ، عندما دخلها المسلمون فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة ، معبد أو هيكل يهودى ، لأمر أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » بالإبقاء عليه ، بل لأمر بصيانته ورعايته . . ولأمر بالمحافظة على نقوشه ومحتوياته ، مثلما أمر بالمحافظة على كنائس المسيحيين ومزاراتهم ، وما فيها من صور وصلبان وتماثيل .

فلم يكن هناك سبب دينى ـ والدين هو الذى كان يحدد خطى المسلمين وأعمالهم فى ذلك الزمان ـ يدعو إلى أن يفرق المسلمون بين كنائس المسيحيين ومعابد اليهود . . فهؤلاء وأولئك من أهل الكتاب ، وسوى بينهم الإسلام فى الحقوق والواجبات . . فإكراههم على الدخول فى

الإسلام محظور ، وحقهم فى أن يعيشوا فى المجتمع الإسلامى سالمين آمنين مكفول . . هذا حق لليهود وللمسيحيين على السواء ، تقابله واجبات ، أو واجبان على وجه التحديد . . هما واجب « الجزية » . . وواجب الامتناع عن إحداث فتنة عامة فى المجتمع الإسلامى ، لكى يعيشوا هم والمسلمون جنبا إلى جانب متفاهمين ومتعاونين . .

* * *

وقد بقيت مدينة القدس من قبل الفتح الإسلامى ، وحتى يومنا هذا، حافلة بالكنائس والمزارات والمقدسات المسيحية . . رعاها المسلمون أكمل وأفضل رعاية ، عند الفتح الإسلامى وبعده بوقت طويل . . بل إن التاريخ شاهد صدق ، على أن المسلمين زادوا عليها ، فوسعوا فى أرضها وأعلوا مبانيها ، وأنفقوا فى سبيل هذا مالا كثيرًا من خزانة الدولة الإسلامية .

وعندما مر بالمسلمين ، بعد هذا ، عصر من الضعف والتخلف ، وما يولده هذا وذلك من التعصب الدينى . . وخاصة فى العصر الذى انتقل فيه الحكم الإسلامى من الأيدى العربية إلى أيدى عناصر انحدرت من المغول والشركس والأتراك ، وكانت حديثة عهد بالإسلام . . عندما مر بهم ذلك العصر ، فإن حكامهم لم يحسنوا معاملة رعاياهم من المسيحيين فى القدس أو فلسطين أو بعض البلاد الإسلامية الأخرى ، منحرفين بهذا عن مبادئ الإسلام التى تدعو إلى السماحة والتسامح ، إلا أن التاريخ يشهد أيضًا بأن أيدى المسلمين لم تمتد إلى هدم الكنائس أو العبث بها فيها من صلبان ومقدسات .

* * *

ونعود إلى قصة « عمر بن الخطاب » ، عندما دعاه الأسقف

«صفرنيوس» إلى جولة فى مدينة القدس ، ليشاهد معالمها وآثارها . . نعرف هذه القصة جيدًا . . ولكن لا بأس من تكرارها فى هذاالمقام ، لنرى أن ما فعله « عمر » رضى الله عنه تجاه الكنائس المسيحية ، كان لابد فاعلا مثله تجاه المعابد اليهودية ، لو أنه كانت فى القدس يومذاك معابد أو مقدسات يهودية .

القصة التى نشير إليها ، هى صفحة من صفحات التاريخ الذى سجله المؤرخون المسلمون ، وكذلك المؤرخون المسيحيون واليهود . . تقول لنا ، إنه بينما كان « عمر بن الخطاب » والأسقف « صفرنيوس » يتجولان فى مدينة القدس ، دخلا كنيسة القيامة ، وهى الكنيسة المقدسة عند المسيحيين ، إيمانا منهم بأن جثمان المسيح عليه السلام دفن فيها ، ثم رفعه الله إلى السماء . . وأدرك « عمر » ومن معه من المسلمين موعد الصلاة ، فطلب إليه أسقف المسيحيين أن يصلى فى الكنيسة . . فاعتذر « عمر » . . اعتذر للأسقف بأنه لوصلى فى الكنيسة ، فقد يجىء المسلمون من بعده ، ويقولون إن « عمر بن الخطاب » صلى هنا ، فيتخذونها مسجدا ، ويخرجون النصارى من كنيستهم ، مخالفين بهذا عهد الأمان الذى أعطاه خليفة المسلمين للمسيحيين من أهل القدس .

خرج « عمر » من الكنيسة ، وصلى فى مكان قريب . . وفى هذا المكان أقام عمر مسجدًا بسيط البناء ، مثل مسجد الرسول فى المدينة يوم أقيم .

* * *

قال بعض المستشرقين فيما بعد ـ أى بعد أن انقضى عصر التسامح الدينى ، وجاءت عصور التعصب الدينى المغرض الذى أخذ صورة الحرب الصليبية مرة ، وصورة الاستعمار مرة ، وصورة الاستشراق المغرض

ثالثة ـ جاءت تلك العصور ، فقال بعض المستشرقين إن « عمر بن الخطاب » لم يصل فى الكنيسة ابتعادًا عما فيها من صلبان وصور وتماثيل ، وإنه اعتذر بها اعتذر به لكيلا يجرح شعور الشيخ الطيب أسقف المسيحيين .

كلام المستشرقين هذا لغو من القول ، ولا وزن له ولا أساس . . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يصلى فى الكعبة قبل الهجرة وبها ما بها من الأصنام والأوثان . . وكذلك المسلمون القلائل ، الذين تشجعوا بعد أن أسلم وانضم إليهم « عمر بن الخطاب » . . أخذوا يصلون جهارا فى الكعبة ، ومن حولهم الأصنام والأوثان . . وبعد الهجرة بسبع سنوات ، جاء الرسول من المدينة ومعه ألفان من المسلمين ، فطاف وطافوا بالكعبة ، التى تحيط بها وتتدلى عليها الأصنام من كل جانب . . ثم علا « بلال » سقف الكعبة ، وأذن لصلاة الظهر ، فصلى « محمد » إماما لألفين من المسلمين صلاة المؤمنين الموحدين . . وهل تحول الصور والتماثيل ، وما شئت مما يصنع الإنسان ، بين قلب المؤمن الخاشع وبين الله الواحد الأحد ؟

و « عمر بن الخطاب » نفسه صلى فى إحدى كنائس القدس . . صلى فى كنيسة المهد فى بيت لحم . . وفيها ما فى غيرها من الكنائس من صور وتماثيل وصلبان . . ورأى « عمر » أن يحفظ الكنيسة لأهلها المسيحيين ، فكتب عهدًا خاصا بكنيسة المهد ، قضى فيه بألا يدخلها من المسلمين أكثر من شخص واحد فى المرة الواحدة . . وحتى الساحة التى أمامها لا يسمح بالصلاة فيها لأكثر من مسلم واحد فى المرة الواحدة .

وقد ظلت هذه الكنائس المسيحية قائمة فى مدينة القدس ، منذ الفتح الإسلامى وحتى يومنا هذا ، لم يصبها بسوء من قريب أو بعيد حكم

إسلامى استمر أربعة عشر قرنا ، أو على الأصح ثلاثة عشر قرنا ، فقد قامت فى القدس « مملكة مسيحية صليبية » زهاء قرن من الزمن ، « من سنة ١٠٩٩ إلى سنة ١١٨٧ ميلادية » . . وعندما استردها المسلمون ودخلها صلاح الدين ، دخلها دون أن تراق قطرة دم واحدة . . تماما مثلما دخلها من قبل عمر بن الخطاب . .

* * *

قامت ، فى القدس ، مساجد المسلمين جنبا إلى جنب مع كنائس المسيحيين ، فكان القدس الشريف نقطة التقاء بين العالم الإسلامى فى أوج الحضارة الإسلامية ، والعالم الأوربى فى أوج سيطرة الكنيسة على ملوكه وأمرائه وشعوبه . . بل كان القدس الشريف هو أول حلقة اتصال بين المشرق والمغرب فى ذلك العصر . .

قرأت فى كتاب عنوانه « القدس » لمؤلف فرنسى اسمه « ميشيل جوان لامبرت » ما يلى : إن حكام المسلمين فى بغداد ، وافقوا على أن يسافر راهب من القدس اسمه « زكريا » ، حاملا معه مفاتيح كنيسة القيامة ، ليسلمها للإمبراطور « شارلمان » . وقد سافر الراهب ، وسلم مفاتيح الكنيسة على سبيل التهنئة من هارون الرشيد ، خليفة المسلمين ، إلى «شارلمان » ، بمناسبة تتويجه إمبراطورًا على أوروبا . .

ويقول المؤلف : منذ ذلك الوقت ، بدأ « شارلمان » فى إنشاء مستوطنات مسيحية أوروبية فى « القدس » . . وكان هذا العمل يثير خيال الشعراء فى أوروبا فينشدون القصائد . . وأضافوا من عندهم قصة غير صحيحة وهى أن « شارلمان » نفسه ذهب إلى القدس . .

ذلك كان موقف المسلمين من الكنائس ، والمقدسات المسيحية ، منذ دخول القدس ، وعلى مدى قرون عديدة وعصور طوال . . فبقيت

قائمة مرعية حتى يومنا هذا . . فلماذا إذن لا توجد فى القدس معابد ولا هياكل ولا آثار يهودية ؟ . . ولماذا يتعب جنرالات إسرائيل أنفسهم ، فيتحولوا إلى علماء آثار ، وإلى هواة حفريات ؟ فضلا عما تحشده «الجامعة العبرية » وجامعات أمريكية وأوروبية من علماء وغير علماء . . كلهم ينقبون تحت أرض القدس الشريف عن معبد « داود » ، أو عن هيكل سليمان ، أو عن قبر « يوسف » . . فما وجدوا شيئا حتى الآن !

ما من أحد من المؤرخين ـ بمن فيهم المؤرخ اليهودى الشهير «يوسفوس » ـ الذين كتبوا تاريخ القدس بالتفاصيل ، قد ذكر أو ادعى أن المسلمين هدموا فى يوم من الأيام معبدًا يهوديًا ، أو طمسوا أثرًا يهوديًا ، أو استولوا على كنيس يهودى وجعلوه مسجدًا لهم . . وهذا دليل ما بعده دليل ، على أنه لم يكن فى القدس عندما دخلها المسلمون معابد أو هياكل يهودية ، وأن القدس لم يكن مدينة يهودية عندما فتحها المسلمون . . وإنما كان مدينة أهلها عرب من نسل كنعان . . وكانوا يتكلمون اللغة العربية . . ويدينون بالديانة المسيحية .

وهنا نتساءل : ألم يدخل اليهود مدينة القدس ؟ ألم يقيموا فيها مملكة لهم ردحا من الزمان ؟

والإجابة التاريخية على هذا ، هى أن بنى إسرائيل دخلوا القدس فعلا . . وأقاموا فيه مملكة لهم فعلا . . وكان هذا فى عهد « داود » وابنه «سليمان » عليهما السلام .

وقد عاشت هذه المملكة الإسرائيلية فى القدس ، سبعين سنة . . نعم، سبعين سنة فقط . . وهى فترة قصيرة جدا من تاريخ القدس ، الذى يضاهى فى طوله تاريخ مصر ، أقدم بلاد العالم . . والذى يتكون من مراحل طويلة ، كل مرحلة منها دامت مئات السنين . . فبعد

المرحلة العربية الأولى ، التى جاءت فيها قبائل كنعان العربية ، واستوطنت فى فلسطين وزرعت أرضها وبنت فيها القرى . . وهى مرحلة طويلة استمرت زهاء ألفين من السنين . . تعاقب على غزو فلسطين ، وحكمها ، والإقامة فيها ، أمم عديدة . . هى أمم الأشوريين والبابليين والفرس والمصريين واليونان والرومان . . وقد أقام كل من هؤلاء مرحلة تاريخية ، أطول من السنوات السبعين التى عاشها بنو إسرائيل فى القدس . . دون أن يدعى أحد منهم ما تدعيه إسرائيل ، فى زماننا هذا ، من أن لها حقها التاريخى فى القدس وفى فلسطين جميعا !

بدأت تلك السنوات ، عندما دخل النبى « داود » القدس فى سنة ١٠٥٠ قبل الميلاد ، أو حول هذا التاريخ . . ولم يبن « داود » معبدًا ولا هيكلاً فى القدس . . فقد جاء فى العهد القديم ، فى سفر الأيام الأول ، ما يلى : « قال داود لسليمان : يابنى قد كان فى قلبى أن أبنى بيتا لاسم الرب إلهى . . فكان إلى كلام الرب قائلاً : قد سفكت دماء كثيرة ، وعملت حروبا عظيمة ، فلا تبن بيتا لا سمى ، لأنك سفكت دماء كثيرة على الأرض أمامى . . هو ذا يولد لك ابن اسمه يكون سليمان . . هو يبنى بيتا لاسمى . . »وظل « داود» يؤدى صلواته فى خيمة من الشعر.

وبنى « سليمان بن داود » عليهما السلام المعبد . . وكان معبدًا صغيرًا، ملحقا بالقصر الملكى ، وبابه مفتوح من جهة القصر ، لأنه خاص بالملك وحاشيته وزوجاته ، أو بعض زوجاته ، لأن بعضهن الآخر لم يكن على دين « سليمان » وكن يتعبدن عبادتهن الخاصة . . ومنهن زوجته المصرية ابنة فرعون مصر التى كانت على دين آبائها .

* * *

هذا المعبد يسمونه الهيكل الأول . . ولم يدم هذا المعبد طويلا ، لأن

أولا « داود » و « سليمان » قد نشبت بينهم المنازعات والمناوشات ، فلم يستمروا فى حكم القدس وفلسطين طويلا . . إذ أغار عليها المصريون من جانب ، والأشوريون من جانب ، وصارت المنطقة كلها منطقة معارك وحروب . . خربت مدنها وشتت سكانها . . ثم ظهرت قوة كبيرة فى الشرق هم البابليون . . فاقتحموا المدينة سنة ٥٨٧ ق.م. . ودخلها « نبوخذ نصر » ملك بابل ، فأحرق الهيكل ، وقوض أركانه وجدرانه ، وسبى جميع الرجال والشبان ، من كان منهم قادرًا على حمل السلاح ، أو كان ماهرًا فى صنعته أو حرفته . . ونقلهم جميعًا إلى بلاده . .

وبقيت « أورشليم » مدينة مخربة ، تحت حكم البابليين ، فترة من الزمن . . ثم ظهرت قوة الفرس وملكهم « قورش » . . فأغار على «أورشليم » ، وانضم إليه أشتات اليهود ، انتقاما من البابليين . . فسمح لهم بالعودة إلى « أورشليم » ، وبنى لهم فيها معبدًا ، وهذا ما يسمونه : الهيكل الثانى .

وكما أحرق ودمر الهيكل الأول ، أحرق ودمر الهيكل الثانى . . وذلك عندما جاء الإغريق ، وحكموا « أورشليم » .

جاء « الإسكندر المقدونى » أولا ، وكان شابا مستنيرًا تتلمذ على «أرسطو » وفلاسفة اليونان . . وكان يحلم بأن ينشر حضارة اليونان فى بلاد الشرق . . ولهذا استقبل فى البلاد التى فتحها بشىء من الترحيب . . حدث هذا عندما جاء إلى مصر ، وحدث مثله عندما وصل جيشه إلى «أورشليم » . . فوجد أحبار اليهود فى انتظاره مرحبين . . وأسرفوا فى الترحيب ، فأعلنوا أن كل مولود يهودى فى تلك السنة يسمى «إسكندر» .

وقد لاحظت ، عندما أقمت فى مدينة « نيويورك » عدة سنين انتشار اسم « الإسكندر » بين اليهود هناك . . ولم أكن أعرف حينذاك ، لماذا

يتسمى اليهود باسم يوحى بأن صاحبه مسيحى . . ثم قرأت فيها بعد ، بأن هذا يرجع إلى أيام « الإسكندر المقدونى » ودخوله « أورشليم » ، وممالأة اليهود له و إطلاق اسمه على أولادهم . .

ولم يدم الود بين اليونان واليهود طويلا . . فجاء أحد خلفاء الإسكندر وأذل اليهود . . هدم الهيكل . . وأقام مكانه تمثالا لرئيس آلهة اليونان ، وأمر بأن تذبح فى هذا المعبد الخنازير . . وحظر على اليهود الاختتان . . وأجبرهم على العمل يوم السبت . . وكانت عقوبة من يخالف هذا هى الإعدام .

وظل الأمر هكذا ، حتى دخل الرومان مدينة القدس . . وكان هذا سنة ٦٣ قبل الميلاد . . ورحب اليهود بالرومان ، مثلما رحبوا من قبل باليونان . . فأقام الحاكم الرومانى « هيرودس » معبدًا كبيرًا يسمونه الهيكل الثالث .

لم يكن ذلك الهيكل الثالث معبدًا يهوديًّا ، وإن كان يسمح لليهود بدخول بعض أرجائه . . بل كان معبدًا رومانيًّا ، بنى على الطراز الرومانى ، وعلى مساحة تبلغ عشرين فدانًا . . وكانت الألعاب الأولمبية ومسابقات الأولمبيات تقام به ! وكانت الحفلات الساهرة تقام به تكريما لضيوف المدينة من الكبراء . .

ثم ساءت العلاقات بين اليهود والرومان . . فأمر الإمبراطور الرومانى « نيرون » ، بأن تحرق « أورشليم » كما أحرقت روما نفسها . . وتم هذا على يد أحد القواد الرومان ، الذى أشعل النار فى المدينة ، فظلت مشتعلة شهرًا كاملا . . وأمر بهدم الهيكل الثالث ، فلم يبق منه إلا حائط . . ذلك هو حائط المبكى . . وذبح جنوده كل من وجدوه فى المدينة من اليهود . . وكان هذا فى سنة ٧٠ بعد الميلاد .

وقرر الحاكم الرومانى إلغاء اسم « أورشليم » . . وأطلق على المدينة اسما جديدًا ، فسماها « إيليا كابيتولينا » . . وظلت تعرف بهذا الاسم، حتى دخلها المسلمون سنة ٦٣٦ ميلادية . . لهذا نجد أن العهد العمرى نص على أنه عهد أمان لأهل إيلياء .

هذه إلمامة سريعة جدا بتاريخ مدينة القدس ، أو بعلاقة اليهود بالقدس ، ومنها نتبين أن آخر معبد يهودى . . أو آخر معبد يسمح لليهود بدخوله ، وممارسة طقوسهم فى بعض أرجائه . . هو ذلك الهيكل الثالث ، الذى أحرقه الرومان وهدموه ونهب جنودهم ما فيه . . فى سنة ٧٠ ميلادية ، أى قبل دخول المسلمين بأكثر من خمسة قرون ونصف قرن! . .

* * *

فلما دخل المسلمون مدينة القدس . . ولماتجول « عمر بن الخطاب » مع أسقف المدينة « صفرنيوس » ، ليرى معالم المدينة . . لم يكن هناك معبد ولا هيكل يهودى واحد . . فقد اندثر هذا كله منذ قرون وقرون . . ولم يسأل « عمر بن الخطاب » عن شىء من آثارهم البائدة ، وإنما سأل عن « الصخرة . . صخرة يعقوب » . . لأنه لم يكن من الممكن إحراق الصخرة أو هدمها . . وإنما اكتفى الرومان ، واكتفى أهل القدس من المسيحيين ، بأن طمروها تحت أكوام من القمامة . .

هذا الأثر اليهودى الوحيد ، الذى لم تمتد إليه أيدى من حكموا القدس بالإحراق والتدمير .

سأل عنه أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » . . ودله « كعب الأحبار» على مكانه ، وأشار عليه أن يقيم مسجدًا للمسلمين متجها إلى

الصخرة . . فنهره عمر قائلا : أمرنا بالكعبة ولم نؤمر بالصخرة . . وأقام المسجد ، فى مكان آخر ، غير بعيد عن « صخرة يعقوب » .

أما عن الصخرة . . فلنتذكر ، ماذا فعل خليفة المسلمين « عمر بن الخطاب » ، وهو ما نعرفه جميعا ، وما ينبغى أن نستعيده فى هذا المقام .

لقد رأى الناس يوم الفتح الإسلامى مشهدًا عجبا !

رأوا أمير المؤمنين وخليفة المسلمين يشمر عن ساعديه ، ويأمر أصحابه أن يفعلوا مثلما يفعل ، فيزيح بيديه ما على الصخرة من القمامة ويلقى بها بعيدًا . . مازال هو وأصحابه بالصخرة حتى أنزلوا كل ما عليها . . وظهرت « صخرة يعقوب » مرة أخرى على سطح الأرض ، وصار المسلمون ، على مدى أربعة عشر قرنا ، يتبركون بالصخرة فى القدس مثلما يتبركون بالحجر الأسود فى ركن الكعبة . . وعليها أقام الخليفة « عبد الملك بن مروان » القبة الرائعة ومن حولها بنى المسجد العظيم .

لم تكن القدس إذن ، يوم فتحها المسلمون ، مدينة يهودية . .

ولم يكن فى القدس ، حين دخلها المسلمون ، معابد ولا هياكل يهودية . . بل لم يكن فى القدس ، فى ذلك الوقت ، سوى أقلية ضئيلة جدا من اليهود . . يكرههم ويمقتهم أهل المدينة الذين كانوا يدينون بالمسيحية . . ويضطهدهم الرومان ، الذين كانوا يحكمون القدس ، ويحكمون فلسطين والشام ، رغم أن من بين اليهود من كانوا يعملون عملاء وجواسيس للحكم الرومانى . . ويعيشون بما يمارسونه من الربا والاتجار فى الذهب والفضة . . ولهذا اشترط المسيحيون على المسلمين ، وهم يسلمونهم المدينة ، ألا يسمحوا لليهود بالدخول إليها !

ولكن . . تجىء هذه الأيام . . وتتعالى أصوات اليهود فى أنحاء

العالم، بكل ما تتيحه لهم وسائل الدعاية والإعلان من أساليب التضليل والافتراء . . فنقرأ ونسمع ونرى كل يوم من يقول : إن المسلمين أخذوا القدس ، وأخذوا فلسطين من اليهود ، واستولوا على هذه البلاد ، وحكموها قرونا عديدة . . ثم نهض اليهود من سباتهم ، واستبدلوا بضعفهم القوة والسلاح ، فاستردوا من المسلمين بلدهم اليهودى ومدينتهم اليهودية !

ويصدق العالم هذه الدعاية . .

بل إن فى العالم العربى والعالم الإسلامى، من يصدق هذه الدعاية . .

وهى ليست مجرد دعاية . . بل إنها أكذوبة من أكبر الأكاذيب . . ولكن التكرار والإلحاح يوما بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، جعلا الأكذوبة الكبرى تبدو وكأنهاحقيقة ، أو كأنها شىء قابل للتصديق . . وللأسف، فإننا نجد العالم الإسلامى ساكنا أو مستكينا ، وهو يقرأ بعينيه ويسمع بأذنيه ، أن فى إسرائيل جماعة أو جماعات أرادت أن تقصف المسجد الأقصى بالقنابل وتهدمه . . ولم يمنعهامن هذا إلا أن انهيار المسجد الأقصى قد يؤدى إلى سقوط حائط المبكى الثالث ، الذى لم يبنه اليهود وإنما بناه الرومان !

* * *

رقم الإيداع ٧٦٢٠ / ٩٤
I.S.B.N 977-09 - 0223 - 3

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرًا * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادًا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولاً * ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرًا * إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعدُ الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرًا * عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرًا * إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا ﴾ .

صدق الله العظيم
[الإسراء : ٤ ـ ٩]

إنها لبشرى عظيمة ، لا يأتيها الباطل من قبل ولا من بعد . . بشرى بأن المسجد الأقصى ومن حوله القدس الشريف . . عائد إلى أصحابه من العرب والمسلمين . . ولكن بعدما يملأ الإيمان قلوبهم ، ويجدد مسيرتهم ، ويوجه خطاهم إلى الهدف المنشود .